شيءٌ فيكِ يُشبِهُني

شيءٌ فيكِ يُشبِهُني

أحمد بو النصر

الطبعة الخامسة ، القاهرة 2017م

غلاف : أحمد فرج

تدقيق لغوي : خالد المصري

رقم الإيداع : 19192 /2015

I.S.B.N: 978-977-488-410-8



دار اكتب للنشر والتوزيع

العنوان : 12 ش عبد الهادي الطحان ، من ش الشيخ منصور، المرج الغربية ، القاهرة .

مصر

هاتف : 01144552557

بريد إلكتروني : daroktob1@yahoo.com

شيءٌ فيكِ يُشبِهُني

قصص

أحمد أبو النصر



دار اكتب للنشر والتوزيع



إهـــــداء

إلى ساكني قلبي منذ أن تعلم النبض،

إلى كل من علمني حرفًا، وأمسكني القلم لأكتب،

إلى كل من آمنوا بموهبتي وساندوني ولو بكلمة طيبة،

إلى من خذلوني وهم لا يعلمون أنهم زادوني صلابة،

إلى كل أصبع يقلب الصفحات، وكل عين ترى

الكلمات، وكل عقل يرسم ما تحويه السطور،

إلى كل إنسان وجد نفسه بين ثنايا ذلك الكتاب،

إلى أحياء ماتوا من ذاكرتي، وأموات يسكنون

الوجدان،



الوَحْدَة



وقفتْ كثيرًا أمام باب مكتبه تنتظر الدخول، دقت الساعة معلنة العاشرة مساءً، إنه وقت راحته من عناء الكتابة، دخلت المكتب في هدوء معتاد بحركة روتينية اعتادت أن تفعلها لسنوات كانت الأضواء خافتة كما هو معتاد، طقوس لم تتغير لسنوات عدة، وقفت أمام كرسي المكتب وتأملت الأوراق وتحسست آخر ما كتبه، أخذت تقرأ الصفحات الواحدة تلو الأخرى كما عودها أن تفعل حتى تعطيه رأيها، عادت إلى أول صفحة مرة أخرى، استرسلت في القراءة حتى وقع بصرها على عبارة "ستبقى وحيدًا وسط آلاف البشر"، ذهبت بذهنها بعيدًا قبل عشرين عامًا، تذكرت ذلك الشخص الذي أحبَّتْه بكل كيانها وأعطته كل شيء - بل وأغلى شيء - انتظرت كثيرًا أن يأتي لبيتها ليحقق وعده، ولكنه تصرف ككثير من البشر الذين يستكثرون على الحيوانات صفاتها فينازعونها فيها، فيبقى البشريُّ حيوانيَّ الفكر والتصرف!

وهناك كان إنسان آخر يرقبها من بعيد، يتحسس خطاها ويختلس النظر لعله يرى عينيها، إنسان قهرته الدنيا وأنهكته الطبقية، فأصبح ممن ينظر لهم المجتمع نظرة ازدراء؛ لأنه ذو حظ قليل، وما أكثرهم! حين نشر أول كتاب له، ورأى اسمه على الغلاف خانه تفكيره فظن أن المجتمع الطبقي سيتغير بين عشية وضحاها؛ فذهب ليخطبها. ضحكت يومها ضحكة جمعت كل معاني السخرية والاحتقار، كانت ما تزال تعيش وهم الزواج بحبيبها ذي الصفات الحيوانية، كانت له كل شيء وهو لم يكن أي شيء، نعم لم يكن أي شيء.

طافت بذكرياتها كثيرًا حتى توقف قطار الذكريات عند ليلة ممطرة، أصوات الرعد تنخلع منها القلوب، بدأت تتحسس بطنها، أحست وقتها بأن عارها سيظهر جليًّا للعيان، وهي بنت الأكابر ماذا تصنع؟ ذهبت إليه؟ في بيته الفقير لم يصدق عينيه حين رآها. قصت عليه قصتها وعرضت عليه مالًا ليتزوجها ويستر فضيحتها، رفض! رفض المال كله فهو يحبها.

تزوجها من دون شرط، من دون مال، نسب الولد لنفسه وأعطاه اسمه، وظلت كما كان يراها من قبل كل شيء،أما هي فما استطاعت أن تتغير كثيرًا، فلم يكن يمثل لها إلا شيئًا واحدًا "زوجًا" أمام الناس والمجتمع، وهو كان يشعر بذلك ويعرفه جيدًا، ووافق أن يستمر لأنه يحبها، كان يعلم جيدًا أن من أشد الأشياء إيلامًا في الوجود أن

يشعرك أكثر الناس قربًا إلى قلبك أنك مجرد شيء في زمرة أشياء في حياته. ورغم ذلك أبى أن ينتصر لكرامته فيخسر نفسه وقلبه، تألم كثيرًا ولكنه كان يحبها.

عاش معها على هذا النحو سبع سنوات كاملة، حتى علمت بمرضها بفشل كلوي، وأن الأمر يحتم زرع كلية لها، لم يتردد كثيرًا فهي أغلى من حياته، أعطاها كُليته لتعيش، وبعد ثلاثة أعوام مات هو بفشل كلوي! فما استطاعت أن تنقذه ليذهب ويترك خلفه حبًّا سيعيش إلى الأبد!

حاولت خلال السنوات الثلاث الأخيرة قبل موته أن تفعل كل شيء من أجله لترد له شيئًا من كرمه عليها، ولكن في كل مرة كانت تفعل شيئًا كان يرد بأشياء عديدة، كان قلبه أكرم من سخائها، كان يحب رأيها في كتاباته، كل يوم ومع دقات العاشرة تدخل في هدوء تقبله، وتقرأ ما كتبه لتعطيه رأيها. كان آخر شيء كتبه رواية بعنوان: "الوحدة"، بدأها بعبارة "ستبقى وحيدًا وسط آلاف البشر".

سنوات كثيرة مرت على رحيله، وكل يوم مع دقات العاشرة تدخل وتقرأ آخر كلمات خطها قلمه قبل أن يتركها وحيدة وسط أهل وأسرة، تتراكم الأجساد وتتناثر الكلمات وتظل القلوب جامدة، يتنحي الدفء وتمرح البرودة وتتمدد المساحة حتى تخطف ما تبقى من الأُنس، تدخل وتخرج وحيدة، والكل من حولها ينظر إليها بعين الحسد وهم لا يعرفون! اليوم فقط فهمت معنى الوحدة وسط آلاف البشر!



قَلبٌ قاسٍ



تحت الورود تكمن الأشواك، من بين الأحلام تنشب الكوابيس مخالبها في أعناقنا، هكذا هي الدنيا، لا تعطي الخير دائمًا، وإن منحت فقليل!

بهذه الكلمات بدأ صديقي خطابه الذي ظل أسير درج مكتبي قرابة الشهر؛ بناءً على رغبته وكان هذا حين ذهبت لزيارته في المستشفى، يومها وجدت جسده نحيلًا وبدأ الاصفرار يكسو وجهه وكان الشحوب قد تملك من كل أجزاء جسده، وما إن دخلت عليه حجرته حتى وجدت أساريره وقد انفرجت؛ وكأنما قد وجد ضالته، وأشار إليّ أن أتقدم ناحيته، تقدمت بخطى رتيبة، وكنت أشعر وقتها بشيء ثقيل في صدري، لم أكن أعرف وقتها سببًا واضحًا لهذا الإحساس، وحين اقتربت منه، أشار لي بالجلوس، فجلست ثم فتح درج "الكومودينو" الموجود بجانب سريره، وأخرج ظرفًا كُتب عليه (لا يُفتح إلا بعد وفاتي).. وحين رأيت هذه العبارة على الظرف

أحسست بنفس الشيء الذي في صدري و ن بدا أكثر ثقلًا من ذي قبل، ثم ناولني صديقي الظرف، وقال بصوت متهدج:

لن أجد خيرًا منك كي أأتمنه على هذا الخطاب. فحافظ عليه جيدًا ولا تفتحه إلا بعد وفاتي.

لم أتحمل الكلمات، وحاولت جاهدًا أن ألملم نفسي، وأن أحافظ على اتزاني، وقلت في هدوء مصطنع:

– لا تقل مثل هذا الكلام، فسوف تُعافى بإذن الله، أرجوك لا تتحدث بمثل هذه الكلمات مرة ثانية، إنها أعمارٌ يا صديقي، ونحن لا نملك شيئًا في حياتنا.

فرد عليّ قائلًا:

– المهم أن تحافظ على ما في يديك، ولا أحد يقرؤه غيرك وألا يُفتح إلا بعد أن يسترد ربي وديعته.

خرجت من المستشفى وقدماي لا تحملانني، طغى صوت دقات قلبي على صخب شوارع القاهرة، كنت أحمل في يدي الظرف، وأحمل في قلبي هم اليوم الذي سأفتحه فيه، تُرى ما الشيء الخطير الذي لا يريدني صديق عمري أن أعرفه إلا بعد وفاته؟! فنحن تقريبًا نعرف كل شيء عن بَعضنَا البعض.

ولم يمر سوى الشهر إلا وكان البارئ قد استرد وديعته؛ ليموت صديقي ويتركني أواجه مصير قراءة ما في الظرف الذي آن الأوان أن يفتح ويصبح السر جليًّا، فتحت درج مكتبي وأخرجت الظرف وبدأ العرق يكسو جبيني، ودقات قلبي كانت قد دخلت في ماراثون مع أنفاسي أيهما أسرع، وبيدين مرتعشتين فتحت الظرف وبدأت اقرأ الخطاب.

***

الخطاب...

صديقي العزيز تحت الورود تكمن الأشواك، من بين الأحلام تنشب الكوابيس مخالبها في أعناقنا، هكذا هي الدنيا، لا تعطي الخير دائمًا، وإن منحت فقليل! لا نملك إلا أن نخضع لأفكارنا، فحياتنا لا تقبل المساومة، ولا تعطي إلا فرصة واحدة إن أعطت! والإنسان لا يعيش حياته إلا مرة واحدة، ولو كان له حق إعادة حياته مرة ثانية لتغيرت أشياء كثيرة، ولكن هذه هي الحياة!

لن أطيل عليك بمقدمات تجعلك حائرًا وأنت تقرأ تلك الكلمات، فأنا أعرف صعوبة الموقف الذي أنت فيه الآن، ولكن من هو مثلي لا يقوى على البوح بما في داخله من دون مقدمات قد تستجدي عطف قارئها.

صديقي العزيز، وأقرب الناس إلى قلبي، ذلك القلب القاسي، إن ما في يديك الآن ليس إلا وثيقة اعتراف، أعلم أن كلماتي قاسية مثلها مثل قلبي، ولكن أرجو منك أن تحافظ على اتزانك، فالكلمات القادمة ستكون أكثر صعوبة وأشد قسوة، نعم أعترف لك وأنا في كامل قواي العقلية، وأنا أكتب هذا الخطاب أنني قاتل! لا تندهش من تلك الكلمة، ولا تتهمني بالجنون، فصديق عمرك الذي طالما سعدت بصداقته "قاتل".. لقد قتلت ابني، أسمع صوت ضحكتك، بل ربما حدثتك نفسك الآن أن تترك الخطاب، وأن تقضي هذا الوقت في اللعب مع أحفادك بدلًا من قراءة كلمات خطها مجنون قبل وفاته! أعرف جيدًا أن ابني مات منتحرًا بعد أن ألقى بنفسه من شرفة حجرته بالطابق السابع، ولكن، هل سألت نفسك يوما: ما الذي دفعه للانتحار؟! أنت أكثر إنسان يعرفني، ويعرف ولدي، بل إنك سألتني كثيرًا: إن كان هناك سرٌّ وراء تلك الحادثة، كنت أهرب من عينيك حين كنت تسألني، أنت الوحيد الذي لم يقتنع بما قالته الصحف ومواقع التواصل الاجتماعي التي أشاعت أن السبب وراء واقعة الانتحار هو علاقة حب فاشلة، فكلانا يعرف أن ابني لم يكن ذلك الشخص الهش الذي تكسره علاقة حب، لم يكن ابني ذلك الإنسان الذي ينهي حياته من أجل امرأة مهما بلغ حبه لها، فقد كان أعقل من هذا، وأنت كثيرًا ما قلت ذلك الكلام، ولكن ربما نظراتي الصامتة

جعلتك تصدق بعض الشيء، ولكن جاء الوقت الذي أستطيع أن أحكي لك صدق الرواية، وأن أعترف بتفاصيل جريمتي منذ البداية.

لقد بدأت القصة منذ أكثر من عشرين عامًا، حين عدتُ من السفر من مأمورية تابعة لعملي، ولم أجد الخادمة وحين سألت عن سبب غيابها قالت لي زوجتي بأنها كثيرة التأخير والغياب، وأنها بارعة في اختلاق الأعذار، وأصبح الأمر غير محتمل، الأمر الذي دفع زوجتي أن تخبرها بعدم رغبتها في الاستمرار في العمل، وأثناء تناولي العشاء أخبرتني زوجتي بنبأ حملها، ذلك الخبر الذي يتمناه أي إنسان سَوِيّ، ولكن وقتها نزل عليّ الخبر كالصاعقة، وتسمرت في مكاني؛ الأمر الذي أدهش زوجتي التي لم تكن تتوقع ردة فعلي.

كانت زوجتي تربطها علاقة حب غير مكتملة بابن عمها، علاقة حب طفولية نتجت عن وجودهما في بيت واحد منذ الصغر، الأمر لم يتعدَّ حب المراهقة الذي عاشه جميعنا، علاقة لم تتطور ولم تتخطَّ إطار المألوف، ولكن الشيطان وجد الأرض الخصبة ليرتع فيها، فأهلكَ في عقلي الحرث والنسل، كان زواجنا زواجًا طيبًا مباركًا فكانت أيامه الأولى سعيدة هنية، ولكن السعادة لا تدوم، فلم ينقضِ سوى شهرين حتى بدأت السعادة في الذبول، حتى تلاشت تمامًا فقد بدأ ابن عمها في الظهور في حياتنا من جديد هو وزوجته، لا أخفيك سرًّا فقد وجدت سعادة بالغة في عين زوجتي في كل مرة كان يزورنا فيها ابن

عمها، وما كنت أقوى على منعه خاصة أنه كان يزورنا ويتودد إلينا بشكل طبيعي لا ريبة فيه، ولكني كنت أشعر بنار تحرقني كلما أثاروا موقفًا قديمًا، وأجد كلاهما يكمل القصة، وكأنهما يَريان الموقف أمام أعينهما، كنت اصطنع الضحكة حتى لا يظهر علي الضيق، كثيرًا ما كنت أستمع إليه يحكي عن موقف ما، وأنظر إلي عيني زوجتي التي كانت تبتسم، وهي تستمع وكثيرًا ما تخفض عينيها، فأعرف قيمة ذلك الموقف عندها، ولكنها اختارتني أنا ولم تختره هو، فما الداعي للشك؟! أفكار عديدة دارت برأسي.

أخرجتني زوجتي من شرودي حين سألتني عن سبب الوجوم الذي حلَّ بي، أتذكر أنني لم أنبس ببنت شفة، وتركتها وغادرت المترل، شك قاتل اجتاحني، لم أعرف يومها كم من الوقت أمضيت خارج المترل؟ ولكني أتذكر أنني سرت كثيرًا على قدميَّ، عدت يومها إلى البيت فوجدت زوجتي نائمة على أريكة صغيرة في صالة الشقة، وبمجرد سماع خطواتي هبت من مكانها وارتمت في حضني والدموع تملأ جفنيها وتقول لي: ما بك؟ لم أرد عليها، كررت سؤالها، فباغتها بسؤال قاتل: هل زارك ابن عمك أثناء سفري، لم تتحمل صدمة السؤال، انهارت وسقطت على الأرض تبكي، لم أكن أملك شفقة عليها، أمسكت بتلابيبها وأعدت عليها سؤالي، أقسمت بأغلظ الأيمان أنه حتى لم يتصل بها، كان عليّ وقتها أن أوقف نزيف الشك الذي بدأ يأكل كل جسدي، ولكن هيهات، فقد كان قسمها يثير الشكوك أكثر وأكثر، وانقلبت حياتنا إلى جحيم، ووضعت زوجتي

طفلًا غاية في الجمال، وحين رأيته شعرت بحالة من النشوة والسعادة، فهو أول مولود لي، وهممت أن أحمله وأضمه إلى صدري، ولكن الشكوك منعتني، ووجدت صوتًا يسري في أعماقي يقول:

- إنه ابن حرام!!

ومرت الأيام، ولم أكن أحمل أي شفقة أو رحمة تجاه هذا الصغير، فكان صوت بكائه، أو حتى ضحكه يثير غضبي، وأتحول إلى شيطان يمشي على الأرض، كنت أتمنى أن يأتي اليوم الذي يسكت هذا الصوت تمامًا، نعم كنت أتمنى موته، ومرت خمس سنوات وانقطع الصوت، ولكنه لم يكنْ صوت الطفل هو الذي سكن بل صوت أمه، فماتت زوجتي ومات معها الحنان، ويوم وفاتها بكى الصبي كأن لم يبكِ من قبل، بكى الحنان الضائع والقسوة التي سوف تحل محلها، بكى الهدوء والسكينة في أمه، والضجيج والصراخ فيّ أنا، ولقد كان محقًّا!

لم يكن يمرُّ يومٌ دون أن أسبه وألعنه مئات المرات دون وجود أي سبب، وقد حرمته من كل متع الحياة، فقد حرمته من اللعب مع أصدقائه والذهاب إلى النادي، حرمته من زيارة أقاربه، فقد كان سجينًا في حياته، وكنت أنا القاضي والسجان معًا حتى أصبح ابني معقدًا.

ومرت الأيام والسنون حتى جاء يوم نتيجة الشهادة الإعدادية، وكان ابني من المتفوقين، يومها دخل علي البيت مهرولًا والسعادة تغمره، يخبرني أنه نجح، وأنه احتل الترتيب الخامس على الإدارة، صفعته يومها على وجهه ووبخته كثيرًا واتهمته بالتقصير، فما الفارق بينه وبين الأول؟! كنت أقسى من أن أشاركه فرحته، كنت أكرهه وأكره وجوده في الحياة، كنت أتمنى موته كل يوم، وجوده أمامي كان يثير حنقي ويشعل ثورتي، يومها بكى ابني كثيرًا؛ فلقد تمنى كثيرا أن يسمع مني كلمة طيبة أو يرى يدًا حانية تربت على كتفه، ولكنه أخطأ العنوان.

كان ابني يتمنى أن يكون مهندسًا، كنت أرى كثيرا على مكتبه أوراقًا خطّها بيده كتب فيها اسمه مسبوقة بكلمة "مهندس"، لم أساعده في تحقيق حلمه، بل قتلته حين أخبرته انه لن يدخل الثانوي العام لعدم مقدرتي على الإنفاق على الدروس الخصوصية، وأن عليه أن يدخل الثانوي الصناعي إن أراد أن يكمل دراسته، ورضخ ابني لقراري دون نقاش كعادته!

وفي إحدى الليالي استيقظت من نومي ظمآنَ، وذهبت لأشرب فسمعت صوت بكاءٍ حار، ونشيجًا حزينًا، لقد كان ابني يبكي حياته المظلمة وأحلامه الضائعة، يبكي ماضيه الحزين ومستقبله المجهول، والتحق ابني بالثانوي الصناعي، وكان الأول على مدرسته في كل

سنوات الدراسة؛ الأمر الذي أهله للالتحاق بكلية الهندسة ليحقق حلمه في الحياة، ولكن كانت المفاجأة التي صدمتُه بها وصدمتك أنت شخصيًّا، هل تذكر ذلك اليوم؟ فقد رفضت التحاقه بأي كلية ورفضت وساطة أي شخص حتى أنت مدعيًا أنني غير قادر على العمل والإنفاق وأنني أريد منه أن يحمل عني المسؤولية!! أية مسؤولية هذه التي أتحدث عنها؟! فإنني لا أتذكر أنني يومًا أنفقت عليه أكثر من مطعمه، بل الأدهى من ذلك أن ابني كان يعمل في كل الإجازات الصيفية، وكان هو الذي يشتري ملابسه من ماله الخاص، لم أنفق عليه يومًا جنيهًا واحدًا في الدروس الخصوصية بل كان يدفعها من حر ماله.

وكالعادة رضخ ابني لإرادتي والتحق بالعمل في واحدة من شركات القطاع الخاص في منصب فني، ولأنه كان نابغة منذ صغره فقد حصل على أول ترقية بعد أقل من عام واحد من تعيينه، وجاء إليّ مسرعًا يخبرني بما ناله لعله يجد مني كلمة تشجيع أو تقدير، إلا أنني كعادتي لم أعره اهتمامًا وتركته ودخلت غرفتي بعد أن تبددت أحلامه وأصبحت هشيمًا تذروها الرياح، استمر ابني في طريقه نحو تحقيق طموحه، يعمل ليل نهار، ولا شيء في حياته إلا عمله وطموحه، ومرت الأيام وأحسست بتغيير طرأ على ابني، فلأول مرة أشعر أن الجمود الذي حلّ بتقاسيم وجهه بدأ يتفكك، لأول مرة أرى ابتسامة ترتسم على وجهه منذ أن كان طفلًا، شعرت بحالة من الدهشة والذهول، التي سرعان ما زالت حين دخل عليّ غرفتي يخبرني بأنه

يحب فتاة ويريد أن يرتبط بها، وأخذ يذكر لي محاسنها وصفاهًا، كنت أرى سعادة في عينيه لم أعهدها من قبل، كنت أرى إنسانًا أمامي برغم الشقاء الذي أذقته إياه، كان لا يزال يحتفظ بإنسانيته التي تشع أحاسيس ومشاعر، وحين سألته عنها وعن اسمها وعائلتها، أخبرني بأن اسمها مروة، وأنها زميلة له في نفس الشركة، وأن والدها أحد الشركاء في الشركة التي يعمل بها وهو المهندس "سمير السقا"، كثيرًا ما كنت أسمع عن أخلاق هذا الرجل، وكم هو رجل مهذب وذو سمعة طيبة! يومها طلبت منه أن يعطيني مهلة أسبوع كي أفكر في هذا الموضوع.

خرج ابني من غرفتي متهلل الأسارير، فلأول مرة لا أرفض له طلبًا، لأول مرة لا أدير له ظهري، فبرغم عدم موافقتي إلا أنه اعتبر مهلة الأسبوع خطوة على طريق التفاهم بيننا.

وانقضى الأسبوع وجاء ابني ليسمع مني الرد، فإذا بي أخبره برفضي، وحين حاول أن يستفسر عن السبب لم أجبه وتركته وغادرت المترل، والوجوم يسيطر عليه لأعود فأجد المصيبة، لقد انتحر ابني، ألقى بنفسه من شرفة حجرته بالطابق السابع ليلقى حتفه في الحال، مات ابني، مات الشيء الحلو الجميل، ماتت البراءة، مات النابغة العبقري، مات المعذَّب المبدَّد الأحلام، مات رفيق القسوة والعذاب، وشُيعت الجنازة وسارت في موكب مهيب لم أتوقع كل هذا الحشد من الناس، ما أعرفه عن ابني أنه كان انطوائيًّا، ولكن ما لم

أكن أعرفه أنه إنسان خيِّر يحبه كل الناس الذين تعامل معهم، اكتظت الجنازة بالمشيعين من جيران ومعارف وأهل وأصدقاء، والكل يبكي فراقه، ومن بين الناس سمعت صوتًا أعرفه يناديني ويربت على كتفي التفت خلفي فوجدته ابن عم زوجتي، وقد تسلل الشعر الأبيض إلى رأسه وفوديه، وأخذ يبكي ويقول: البقاء لله وحده، فقد كنت أعتبره مثل ابني الذي لم يأتِ من صُلبي وتعلقت به وأحببته كما لو كان ابني وازداد تعلقي به وحبي له بعد أن أخبرني الأطباء باستحالة أن يكون لي ولد.

وهنا دارت بي الدنيا، إن ابن عم زوجتي عقيم، من مات هو ابني، ابني الذي أنجبته من صُلبي، لقد قتلته بشكي وأوهامي، كنت أقتله كل يوم من جراء قسوة قلبي عليه، أنا قاتل ابني يا صديقي، إنني لا أطلب من الله أن يرحمني، وكيف يرحم من قسا قلبه على ابنه طوال حياته، ولكني أطلب من الله أن يرحم ابني، وألا يكتبه عنده كافرًا، فأنا الذي دفعته ليقتل نفسه، إنني أنا القاتل الحقيقي.

بهذه الكلمات أنهى صديقي خطابه، وتركني غارقًا في دموعي، لا أعرف لمن أدعو بالرحمة،ولمن أدعو بالهلاك، صديق عزيز قاتل، وبريء معذَّب كافر!

***



ولِمَ لا



كان الجو قارس البرودة، أصوات الرعد مخيفة، زخات المطر سريعة ومتلاحقة، لم يكن هناك ما يستدعي خروجي من منزلي، ولكن ثمة شيء دفعني للخروج، آثرت أن أترك سيارتي وأن أمشي في هذا الجو،كان الجو مخيفًا، والظلمة قد نشرت أجنحتها على كل أرجاء المكان، لم يكن هناك سوى أضواء كشافات السيارات المقبلة على هذا المكان.

شيء ما في داخلي كان يقول لي: "ولِمَ لا؟" كنت أريد أن أثبت لنفسي أنني مستيقظة، وأنني لا أحلم، أردت أن أستشعر البرد القارس على جبهتي ووجنتي، أردت أن يبلل المطر ملابسي وشعري، أردت أن تسمع أذناي دوي الرعد، أردت أن ينخلع قلبي من هول المنظر، كنت أتحدى نفسي، وددت لو أملك شجاعة تدفعني لأن أصرخ وأقول: "إنني كائن حي".

ولكن كيف؟ ذرفت عيناي دموعًا اختلطت بماء المطر، كلاهما سقط من وجهي، وابتلت الأرض بهما، أشحت بوجهي بعيدًا، ونظرت إلى السماء، وجدتها ملبدة بالغيوم، ولكني ظللت أنظر حتى سكن المطر وصفت السماء، رفعت كلتا يدي وقلت: "يا رب".

أخفضت يديها واستدارت لتمضي في طريق العودة إلى منزلها، عادت بذكرياتها للخلف عشرين عامًا، تذكرت يوم أن التقيا لأول مرة، لحظة لم تستطع تلك السنين بكل ما حوت من أحداث أن تمحوها، تذكرت كيف وقر حبه في قلبها من أول نظرة، تذكرت يوم أن قال لها عمر كلمة أحبك وكيف أنها كادت أن تطير من الفرح.

تذكرت صدمتها حين أخبرها والدها أن حسام ابن عمها قد جاء ليخطبها، وكيف كان هذا الخبر كالصاعقة، تذكرت حين أرادت أن تستخدم حقها الشرعي في القبول أو الرفض، ولكن إرادة الأب والعادات والتقاليد حالت دون ذلك، فقد اتفقا الأخوان – والدها ووالد حسام – أن يزوجاهما لبعضهما البعض منذ لحظة ميلادها، تذكرت كم كانت تلك الأيام عصيبة.

تذكرت يوم أن جاء عمر ليخطبها لعله يستطيع أن يصلح ما أفسدته العادات والتقاليد، وكيف كان والدها شديد القسوة، عديم الرحمة حين نهره ورفض طلبه بغلظة، تذكرت الأحلام الوردية التي رسمتها مع عمر، وكيف أنها أصبحت أطلالًا نتيجة للعادات

والخرافات التي زرعها أجدادنا وغرسوها فينا، وها نحن نجني ثمارها من أعمارنا ومشاعرنا.

تذكرت كيف كان حسام زوجًا رحيمًا بها، وكم أنه أحبها رغم إحساسه أنه ليس الإنسان الأول في حياتها، تذكرت كيف كان يعاملها، تذكرت كلماته العذبة، ورقته التي أجبرتها أن تحترمه، بل وتقدسه، تذكرت خوفه عليها حين كان يداهمها أي مرض ولو برد الشتاء، تذكرت تعاطفه معها حين علمت بعدم مقدرتها على الإنجاب، وكيف أنه رفض أن تشاركها إنسانة أخرى في قلبه ولو على حساب عاطفة الأبوة التي سيحرم نفسه منها.

تذكرت نظرته الأخيرة لها قبل موته، تلك النظرة التي حملت بين طياتها كل مشاعر الدنيا، تذكرت الكلمة الوحيدة التي نطقها لسانه قبل أن تفارق الروح الجسد حين قال لها: "سأفتقدك".

غرقت في بحر من الدموع، اختلطت فيها مشاعر الحزن والحيرة،

رن جرس الجوال، مسحت دموعها بيدها، كادت أن تغلق الصوت حتى تستريح، ولكن شيئًا في داخلها جعلها ترد، سمعت صوت حبيبها عمر يقول لها:

- أحبك.. عشرون عاما أنتظرك، لم ولن أهوى سواك، أحبك بكل ما تحمله الكلمة من معانٍ.. أحبك.

أخفضت الجوال من على أذنها في محاولة لإنهاء المكالمة فباغتتها بحضن دافئ أنساها آلام السنين، فقد كان يسير خلفها.



سجنٌ بلا جُدران



لم يكد يغادر جدران السجن الذي أمضى به أكثر من نصف عمره، حتى أعاد نفسه إليه بنفسه وهو بكامل إرادته وهو بكامل قواه العقلية.

عاش عمره كله يبحث عن نفسه داخل نفسه،أراد أن يهرب من الدنيا بأسرها، لم يكن أمامه مفر إلا إليها، أسر نفسه بنفسه. كان القاضي والجلاد. أحبها بكل كيانه، لم يعشق سواها، أراد أن ينأي بنفسه منها فهرب إلى داخلها، لم يكن يعرف أو يدرك أن كل الطرق تؤدى إليها، كلما رأي عينيها أغمض عينيه ليتوارى منها فيراها في مخيلته، ملأت عليه كل حياته، كانت له العذاب الحلو، والقسوة اللذيذة، والسجن الحر، كانت الشيء ونقيضه، وكان يعرف كل ذلك وينكره في الوقت نفسه.

عجيب أيها الإنسان، تعرف الشقاء فتهرول إليه وتعرف أين الراحة، فتنأي بنفسك عنها بل وأكثر من ذلك أنك تقنع نفسك أنك أكثر البشر فهمًا.

بعد غيبوبة طويلة عاش فيها أفاق على شعاع دافئ من شمس مشرقة أعطته إشارة التنبيه أنه على قيد الحياة، كان يعيش داخل غرفة مظلمة صنعها بمحض إرادته، أغلق الباب على نفسه وراح يقنع ذاته أن الدنيا بما رحبت ليست إلا تلك الغرفة، فعاش فيها قرابة نصف عمره، حب وُلِدَ مشوهًا بذل كل ما في وسعه ليعالج الأمر، وفي كل مرة كان يزداد سوءًا، وكلما ازداد الأمر تعقيدًا، أقنع نفسه أن الحل قد أوشك، سنوات وسنوات، والكل ينظر إليه بعين تملؤها الشفقة، وهو لا يلقي لهم بالًا فقد كان يعيش في عالمه، صدمة حلت به، قلبت الدنيا رأسًا على عقب، كان يعيش في غيبوبة قاتلة حاول من حوله أن يخرجوه منها، فشلوا جميعًا، أكمل حياته في تلك الغرفة المظلمة، الظلام من كل جانب لم يكن يرى أي نور، حتى ذلك الشعاع، هذا الخيط الرفيع من الأمل قد عمي بصره عنه،لم يكن يرى شيئًا حتى نفسه غابت منه، وفجأة وجد الشعاع الذي ظل يبحث عنه، شعاع من النور، شمس الحياة أشرقت في غرفته المظلمة، لقد استقبلت حواسه ومدارك إحساسه إشارة التنبيه أنه حي لا يزال على قيد الحياة، وبدأت عيناه ترى نفسه، يا الله إنه هو هو، لم يتغير، لم تؤثر الظلمة في جسده، لقد بدأت عيناه تسمعان نبض قلبه، نعم إنه حي، ما أعظم النور! شكراً لك أيتها الشمس، لقد عرف الآن الحقيقة،

حقيقة الوجود، بدأ يتحسس بيديه جدران الغرفة التي وضع نفسه فيها، إنها ليست ضيقة كما كان يتصور، لقد بدأت الصورة القاتمة التي رسمها خياله تتضح، إن الغرفة بلا جدران من الأساس، ولكن فجأة، اكتشف الصدمة الحقيقية، إنه في حلم طويل، أفاق منه على ظلمته التي عاش فيها، إنه لا يرى يديه، ولكنه استطاع أن يتحسس الجدران مرة أخرى، إن الشعاع الذي نفذ إلى داخل الغرفة شعاع وهمي، إن خيط الأمل الذي نفذ إلى حياته لم يكن إلا بداية لطريق ممتلئ بالأشواك، فكان كالطائر الذي سبح في فضاء سحيق من الأمل غير عابئ ولا مكترث بعواصف الذكريات التي باتت تهب من حوله، قاوم تلك العواصف بجناحيه حتى خارت قواه فسقط إلى أرض الواقع بعد أن كُسر جناحاه وصار كالخرقة البالية.

فرحة الأمل جعلته كالمجنون يتخبط يمينًا ويسارًا، ففي زحمة الفصول لم ينتبه، فوضع قدمه باكرًا في الخريف، هو من أعاد نفسه بنفسه إلى السجن، وهو من حكم، وهو من نُفِذَ عليه الحكم.

لم يكن يعرف أن الحب الذي استشعر منه طريق النجاة هو نفسه أول طريق الهلاك. إن مدارك إحساسه أُصيبت بعطل مفاجئ أثرت بشكل ملحوظ على ترجمة كل إشارات التنبيه.

مسكين أيها الإنسان! تجرب الشيء وتفشل، ثم تعود لتجرب نفس الفشل، تتلذذ بمرارة التجربة وتشعر بالنشوة حين تلقي بنفسك إلى التهلكة، تترك السعة لتعيش في الضيق، والنور لتتمتع بالظلمة،

تنتقد الشيء وأنت غامس فيه نفسك، تنصح الآخرين وأنت قابع في بؤر المشكلات، تقنع الناس بالحياة وأنت ميت بلا حراك ولا روح!

عاش في حب وهمي، حب وُلِدَ ميتًا وليس مشوهًا، ولكنه أبي أن يتحسس نبضه ليتيقن من وفاته، أمل زائف صور له الحلم حقيقة، فغرس نفسه في أرض بلا أوتاد، فسقط في الهاوية، أقنع نفسه بالعوم في بحر العشق، فغرق قبل أن تلمس الماء قدماه، أحبها وهو يعلم النهاية، ولكنه استدار عنها فكان كالأصم الذي ظل يهز رأسه للناس متوهمًا أنه يسمع كلامهم وهم صامتون لا يحركون شفاههم، إلا للتثاؤب أو للابتسام، عشق كل شيء وطأته قدماها، فضلًا عن نسيم مر على وجهها، ذاب حبًّا في عينيها، كلما تملكت منه الشجاعة ليعلن عما بداخله، تحطمت الكلمات على شفتيه، إنسان هو بكل ما تحمله الكلمة من مساوئ.

قلبٌ شَغُوف



ستظلينَ في حياتي خالدة مهما فرقتنا دروب الحياة، وسوف يأتي يوم تتداعب فيه أنفاسنا، وسأضمك إلى صدري لتشعري بنبضات قلبي وهي تنادي اسمك، فإني خلقت وقلبي لديك..

إلى متى ستظل فروق الطبقات الاجتماعية متأصلة في جذورنا؟ أو لم تمحها أعاصير التطور التي تعصف بنا يومًا تلو الآخر؟! هل ستبقى هذه الفروق والفواصل راسخةً في حياتنا ولن تذوب مع تيارات التقدم؟ فعلى الرغم من انتهاء عهد الرأسمالية مع قيام ثورة يوليو والقضاء على هذه الطبقة التي سببت الكثير من الفساد فإنه لا يزال هناك بعض من أصحاب النفوذ والثروات ممن ينتمون لهذه الطبقة والذين توارثوا الأموال والنفوذ عن عائلاتهم، وهم ممن يلقبون بالطبقة "الأرستقراطية"، وأصحاب هذه الطبقة دائما ما ينظرون للآخرين نظرة احتقار وازدراء وكأنهم عبيد، ينسون أو يتناسون أننا كلنا بشر، وعلى الجانب الآخر نجد أصحاب الطبقات الدنيا لا يملكون سوى

الرضوخ والخضوع لهذا الوضع الذي فرضه المجتمع عليهم حتى أصبح متأصلًا في جذورهم، وأصبحت الأجيال تتوارث هذه الأوضاع جيلًا تلو الآخر، ولكن...

هناك ثمة شيء لا يعرف هذه الفروق والفواصل، إنه الحب، إن الحب هو الشيء الذي لا يعترف بوجود فوارق اجتماعية، وقد يكون ذلك هو السبب الذي دفعني لأكتب تلك السطور التي بين أيديكم والتي أطلقت عليها اسم "قلب شغوف".

***

– نسرين أرجوكِ دعيني أساعدك في اتخاذ أهم قرارات حياتك، فأنتِ مثل ابنتي، ووالدك رحمة الله عليه كان من أعز أصدقائي، لقد دامت صداقتنا أكثر من خمسة عشر عاما، منذ قدومه من الولايات المتحدة الأمريكية حاملًا رسالة الدكتوراه، وتعيينه أستاذًا بالجامعة وحتى وفاته، ومن حقك علي أن أشاركك في اتخاذ مثل هذا القرار، فأنا مثل والدك.

– دكتور خالد، أرجوك، إنها حياتي أنا، ولا بد أن أقرر مصيري بنفسي ما دمتُ لم أخطئ، وهذا ما عودني عليه أبي.

– لا يا نسرين، أنا لا أؤيدكِ في هذا القرار، كيف؟! كيف تقبلين مثل هذا الشاب ليكون زوجًا لكِ؟ لو كان والدك حيًّا لما قَبِلَ هذا الوضع أبدًا.

- ولِمَ لا يا دكتور خالد؟! أليس هذا الشخص إنسانًا مثلي ومثلك، أليس لديه أحاسيس ومشاعر، أليس من حقه أن يحب كسائر البشر، أقسم لك أن والدي لو كان حيًّا لكان أول من أيد هذا الزواج، فلم أرَ في حياتي من يؤمن بالحب مثل أبي.

- ولكنه فقير! ماذا يملك هذا الشخص كي يتجرأ ويأتي إلى هنا ليطلب يدك؟! من أبوه؟ انظري إلى نفسك، إلى عائلتك، أنت يا ابنتي لا تزالين صغيرة، ومشاعر المراهقة تغلب على تفكيرك وقراراتك،

- لا، أنا لست مراهقة، ربما يكون هذا الإنسان فقيرًا حقًّا، ولكنه غني بحبه لي.

- سأكرر لكِ ما قلته لكِ يا ابنتي.. لو أن الدكتور عمر والدك حيٌّ لما قبل هذا الوضع أبدًا، بل ربما طرده!

- وأنا سأكرر لك ما قلته يا دكتور خالد.. لو أن أبي حي، لربما ذهب بنفسه إلى هذا الشخص في بيته، و طلب منه أن يتزوجني، فأنا أعرف أبي جيدًا.

- مستحيل!

- المستحيل هو ما ظننته أنت يا دكتور، فأنت لا تعرف أبي مثلما أعرفه أنا، ربما تعرف أبي الأستاذ الجامعي، أبي الصديق، أبي رجل الأعمال، لكن أقسم لك إنك لا تعرف أبي الإنسان العاشق. هل

تعرف يا دكتور خالد أن أبي هو من علمني الحب، لا تندهش، فإن أبي لم يكن أبًا لي فحسب، لقد كان كل شيء لي، كان صديقًا وأبًا وحبيبًا وأخًا، كان أبي كل هؤلاء، فهو أول رجل في حياتي، وظل حتى وفاته الرجل الأوحد في حياتي، وقد ورثت عنه كل شيء، حتى حبه.

- كيف هذا ؟

- سأروي لك القصة من البداية، رغم أن البداية كانت قرب النهاية.

قالتها نسرين وعلى وجهها ابتسامة ساخرة من القدر، حيث إن والدها قص عليها قصته و هو في مرضه الأخير.

***

كانت ليلة من إحدى ليالي الشتاء، ليلة مظلمة قارسة البرودة، الرياح فيها عاتية، وكنت أجلس بجوار المدفأة، أحتسي كوبًا من الشاي الساخن كعادة اعتدناها أنا وأبي منذ الصغر، كان وقتها أبي في مرضه الأخير، و كان ملازمًا الفراش بشكل دائم حتى الصلاة كان يؤديها على فراشه، وفجأة سمعت صوت أبي يناديني من الغرفة، هرولت إليه مسرعةً، فوجدته مستلقيًا على فراشه، و كان المرض قد اشتد به، جذبني من يدي و أجلسني إلى جواره، وأخذ يتحسس بيده شعري، كما كان يفعل عندما كنت صغيرة حتى أذهب في النوم، ثم ضمني إلى صدره، وكنت يومها أسمع نبضات قلبه تدق سريعًا وكأنها

تريد أن تقول شيئًا، ثم قبلني على وجنتي، وأحسست بأنفاسه الساخنة تلفح وجهي في حنان متدفق، وقال لي بصوت واهن ضعيف، و كأنه عابد يتوسل إلى خالقه:

- نسرين أريد أن أحدثك بشيء، طالما أخفيته عليك، ولكن حان الوقت الآن لتعرفي هذا الشيء، ولكني أريدك أن تصغي إليّ جيدًا وأن تعي كل كلمة أقولها.

- تكلم يا أبي، فكلي آذان مصغية.

- سأبدأ حديثي معك منذ البداية، منذ أن التحقت بكلية الآداب و بدأت حياتي الجامعية، كنت وقتها شديد الانطواء شديد الحياء، فكنت أذهب وحيدًا وأحضر محاضراتي وحيدًا وحين أعود، أعود وحيدًا، كانت الأيام الأولى لي في الجامعة غاية في الرتابة، لا أتحدث مع أحد تقريبًا، ومرت الأيام بثقل رهيب، خلال تلك الفترة بدأت أتعرف على بعض الأصدقاء من نفس الدفعة، وكنت لبقًا حلو الكلام؛ الأمر الذي جعل الاندماج مع الصداقات الجديدة أمرًا سهلًا، ويومًا من الأيام كنت بمكتبة الجامعة أبحث عن مرجع معين يساعدني في أحد الأبحاث المطلوبة مني، وكنت وقتها بالفرقة الثانية، وما إن أخذت المرجع وجلست وبدأت في قراءة أولى صفحاته، حتى وجدت فتاة غاية في الجمال، جاءت تطلب مني أن أمرر عليها المرجع بعد الانتهاء منه، لا أخفي عليك أنني كنت أنظر إليها في بلاهة حتى أنني

لم أعِ جيدًا ما قالته، فقد كان تركيزي منصبًا على عينيها الجميلتين، كل ما أذكره أنها كانت عذبة الصوت، لم يكن لي علاقات بالجنس الآخر على مدى حياتي حتى هذا اليوم، بعد أن أنهت كلامها وشكرتني وابتعدت عن المكان، تسمرت في مكاني لفترة قبل أن أذهب إليها مهرولًا سائلًا عمَّا قالته، فانفجرت في الضحك مما لفت انتباه كل الحاضرين في المكتبة، وبعد أن قالت ثانية ما قالته سابقًا، ابتسمتُ لها في إيماءة على الفهم والموافقة، ثم قمت بدعوتها على القهوة في كافيتريا الجامعة فلبت الدعوة، وعرفت يومها أنها في نفس القسم الذي أدرس به، ولكنها تصغرني بعام دراسي، وتوالت اللقاءات اليوم تلو الآخر، وكنت أساعدها في دراستها بحكم أنني أسبقها بعام؛ الأمر الذي سهل وجودنا المستمر معًا، وبالطبع ولم يخلُ الأمر من همز ولمز العديد من الطلبة والطالبات من دفعتي ودفعتها، تعلقتُ بها بجنون، بل إنني أحببتها، كنت أحب كل شيء فيها، عينيها وحنانها، كنت أحب شعرها حتى دلالها واندفاعها كنت أحبه، فقد سيطرت على كل تفكيري، كنت إذا جلست بمفردي أفكر فيها، وإذا صليت أدعو لها، وإذا ذاكرت رأيت صورتها بين السطور، وإذا نمت حلمت بها، كانت آخر شيء أراه قبل أن أنام، وأول شيء أراه حين أستيقظ، كنت أحبها لدرجة الجنون، وكنت أرى حبها لي في عينيها، فبالرغم من أنها لم تتفوه بأي كلمة من كلمات الحب المعروفة بين العشاق، فإنني كنت أشعر بحبها لي من رعشة صوتها، من نبضات

قلبها، من نظرة عينيها، ويومًا من الأيام وبينما نحن جلوس أنا وهي على أحد المقاعد الرخامية في حديقة الكلية، فوجئت بها تخبرني بأنها سوف تغني لي جزءًا من أغنية تحبها، فتهللت أساريري من الفرحة وأحسست أنني أحلق في عنان السماء من جراء فرحتي، وأخذت تغني:

في ليلة عشق وخداني   على شط الهوى التاني

قابلت البحر في عيونك   شربت عطشت من تاني

هي دي حكايتك معايا   شوف بقى قلبي وجنونه

سكتت برهة ثم استدارت إليّ قائلة:

– هل ستنساني يا عمر؟

– لماذا تقولين هذا الكلام يا نسرين؟

– لا اعرف، ولكن أريدك أن تخبرني: هل ستنساني؟

– ستظلين في حياتي خالدة مهما فرقتنا دروب الحياة، وسوف يأتي يوم تتداعب فيه أنفاسنا، وسأضمك إلى صدري لتشعري بنبضات قلبي وهي تنادي اسمك، فإني خلقت وقلبي لديك، إن روحينا متآلفتين، لقد ألف الله بين روحينا يا نسرين، فجعلها روح واحدة

بجسدين، إنني أحبك يا نسرين، ولن أنساك أبدًا، أحبك، أحبك حتى الموت .

ومر العام الثالث والرابع وحبنا يزداد ويقوى، وأحلامنا تكبر، وظهرت نتيجة الليسانس ونجحت والحمد لله بتقدير امتياز، وأصبح حلم تعييني معيدًا في الكلية أقرب مما رسمتُ في خيالي، وبعد النتيجة اتصلت بنسرين في منزلها لأول مرة في حياتي، لأحدد ميعادًا أقابل فيه والدها، وتم تحديد الميعاد وذهبت في الموعد المحدد، ودخلت بيتها لأول مرة في حياتي، كم كنت أحلم بهذا اليوم وها هو الحلم قد تحقق، ودخلت بيتها وجاءت والدتها ووالدها وجلسنا نحن الثلاثة، ودار الحديث بيننا في موضوعات مختلفة وكثيرة كلها لا تمت بصلة لما جئت من أجله، وبعد قرابة عشرين دقيقة دخلت علينا نسرين تحمل صينية عليها أكواب من العصير، ثم خرجت مسرعة، وهنا استدار لي والدها، وأخذ يسألني عن نفسي وعن أحوالي وظروفي المادية، وما أنوي فعله في المستقبل، وعن تخطيطي للحياة العملية، وكم كنت خجولًا ومرتبكًا ولكن ما إن بدأت بالكلام حتى بدأ الخجل والارتباك في التلاشي، ووجدت نفسي أسهب وأسترسل في الحديث، فقد كنت أحبها، بل إن قلبي كان شغوفًا بها، وفجأة استدارت لي والدتها وقالت لي في حدة مصطنعة:

– هل تستطيع يا ابني أن تفتح بيتًا وتنفق على ابنتنا؟

سرت قشعريرة في جسدي، وأحسست بالعرق يتصبب من كل مسامي، وقلت:

- إنني ينتظرني مستقبل واعد، وكل ما أرجوه منكدا الموافقة، وسوف أفعل كل ما أستطيع فعله وما لا أستطيع فعله حتى أوفر لها حياة سعيدة.

فقالت لي والدها بنفس اللهجة الحادة المصطنعة:

- لن تستطيع فعل أي شيء، هل تعرف لماذا؟ لأنك فقير! صدقني يا ولدي إن كنت تحبها فعليك أن تحب لها السعادة والخير، وسعادتها لن تكون معك، إن كنت حقًّا تحبها فاتركها لتعيش مع من يحقق لها السعادة.

لقد كانت هذه الكلمات كالسكين الذي يمزق جسدي كله، ولم أنبس بعدها ببنت شفة، وحولت بصري عنها، وأخذت أطوف ببصري في أرجاء الحجرة في نظرات شاردة، كأنني أبحث عن شيء أقوله، وفجأة لمحت طرف ثوب نسرين كانت تقف خلف الباب، لقد سمعت كل شيء، سمعت وسكتت، لم تحاول أن تدافع عن حبنا وأن تحميه وتحافظ عليه، بل وقفت مستسلمة لكلام أمها، لقد كانت أضعف من أن تواجه أهلها، وتعلن عن رأيها بصراحة، إنني متأكد أنها كانت تحبني، ولكن ما الفائدة؟ لقد كانت سلبية، وربما تكون سلبيتها هذه هو ما جعل منها إنسانًا مثلي ومثلك، فلولا سلبيتها

لكانت إنسانًا كاملًا، والكمال صفة من صفات الألوهية، وهي ليست إله، إنها بشر يحب ويكره ويتألم، يفرح ويحزن، ربما لو كانت دافعت عن حبنا لتغيرت أشياء كثيرة، لكنه القدر، وما أدراك ما القدر! وخرجت من بيتها الذي طالما حلمت أن أدخله، خرجت منه منكس الرأس، وأحسست وقتها أنني كُسرت، بل إنني أُهِنْتُ بسبب فقري.

ومرت الأيام عليَّ ثقيلة وكأنها الدهر كله، لا يغمض لي فيها جفن، ليلي مثل نهاري، أتجرع كأس الإهانة كل لحظة، ومرضت في هذه الفترة من الحزن عليها، وكنت أثناء مرضي أتخيلها واقفة أمامي وعلى شفتيها ابتسامة رقراقة، كنت أمد يدي إليها مُحاولا أن أتحسسها وأتحسس يدها التي طالما حلمت أن ألامسها، فلا أجدها وكأنها السراب، لا تتعجبي هكذا يا حبيبتي، فقد كانت هي الدنيا وما عليها، ومر شهران وحالتي تزداد سوءً اليوم تلو الآخر، وقد ازداد جسدي نحولًا، وكسا الاصفرار ملامح وجهي، ودُفنت عيناي للداخل وكأن بهما بياتًا شتويًّا، وفي أحد الأيام فوجئت بوالدي يدخل حجرتي والسعادة تغمر عينيه وابتسامة فرح ترتسم على شفتيه، ويقول:

- مبروك يا عمر، لقد تم إدراج اسمك بكشف المعيدين بالكلية.

حينئذ أحسست بأن الله أراد أن يعوضني خيرًا عما أصابني في مشاعري ولكِ أن تتخيلي سعادتي لحظة أن أخبرني والدي بهذا النبأ،

فكم عشت أنا ونسرين أيامًا نحلم بهذا اليوم! وكم كانت تتمنى أن يأتي يومٌ وتُلقب فيه بحرم "الدكتور عمر"! وكم كانت سعادتي حين أراها تحلم وتتخيل وترسم مستقبلنا الذي أصبح هشيمًا تذروه الرياح!

وبدأ العام الدراسي وذهبت إلى الجامعة، ولكن هناك ثمة اختلاف هذه المرة، فذهابي إلى الجامعة هذه المرة كان بصفتي أستاذًا لا طالبًا، ودلفت إلى قاعة المحاضرات يملؤني الزهو والفخر، وفجأة رأيتها، رأيت نسرين جالسة بين زملائها، ولكنها لم تكن تنظر إلي كباقي زملائها، بل كانت مطأطئة الرأس، خافضة عينيها لأسفل، وكأن الجاذبية الأرضية تركت كل شيء إلا عينيها، كنت أعرف أنها لا تريد أن ترفع عينيها حتى لا يحدث الصدام، وبدأت في شرح أول درس ألقيه في حياتي، وكنت أسهب في الشرح وكأنني أحفظ ما أقول عن ظهر قلب، كنت أمتلك كاريزما خاصة في الإلقاء جذب انتباه الحاضرين، وبدأت أرى التركيز يكسو ملامح الجالسين، وفجأة تلاقت أعيننا، أقصد أنا ونسرين. وتسمرت في مكاني، ولم تحاول هي إخفاض عينيها هذه المرة، بل جعلتهما معلقتين في عيني وأحسست بأن عقلي قد طمس، وأنني لا أتذكر أي شيء وأحسست أن الطلبة قد بدؤوا يتهامسون علي، ويضحكون على حالي، واستأذنت في الانصراف، وخرجت دون أن أكمل شرح أول درس في حياتي، كان يومًا ثقيلًا على قلبي، وفي اليوم التالي استجمعت كل قواي وحاولت أن أدخل القاعة ولكني لم أستطع، يومان مرا وأنا لا أستطيع أن أدخل

القاعة خشية أن تتلاقى أعيننا مرة أخرى، وظللت على هذا الحال حتى تغلبت على نفسي، وفي صباح اليوم الثالث دخلت قاعة المحاضرات وأخذت ألقى الدرس وعيناي شاردتان، تائهتان بين الطلبة، كنت أبحث عنها، أبحث عن عينيها رغم خشيتي منهما، ولكني لم أجدهما، وتوالت الأيام سريعًا ومر العام وتخرجت نسرين وبدأت أخبارها تنقطع رويدًا رويدًا، وبعد عامين على تخرجها حصلتُ على درجة الماجستير بتقدير جيد جدًّا مع مرتبة الشرف، وجاءتني بعدها منحة الدكتوراه، وتقرر سفري إلى أمريكا، ولم يكن أمامي سوى أشهر قلائل حتى أنتهي من إجراءات السفر، ورغم سعادتي الشديدة فقد كان يتملكني حزن رهيب، حزن على فراق أرض الحبيب، فقد كنت أستنشق عبيرها مع نسمات كل صبح جديد، كنت أرى وجهها في ضوء القمر، كان كل شيء في مصر يذكرني بها، وتحدد موعد سفري، وودعت أهلي وأصدقائي، وسافرت والحنين والشوق لمن أحببتها يغمرانني، أنهيت إجراءات السفر سريعًا وخرجت باحثًا عن سيارة أجرة تقلني إلى مقر سكني التابع للجامعة وفجأة! وجدت امرأة تعبر الشارع في أثناء مرور سيارة مسرعة، فألقيت حقيبتي وهرولت مسرعًا تجاهها، وجذبتها من يدها بعيدًا عن السيارة، ولكن السيارة كانت أسرع مني، وفجأة لم أشعر بأي شيء إلا وأنا في المستشفى وساقي موضوعة في الجبس، فقد أنقذت السيدة وصُدمت أنا، وأخذت أتلفت حولي، فإذا بالسيدة نفسها تقف بجواري، وأحسست بيدها على رأسي، ورأيت الدموع في عينيها، وقالت لي بالانجليزية :

- أنا آسفة لما حدث، إنها غلطتي، كان علي أن أنظر حولي قبل أن أعبر الشارع.

- إنه قضاء الله، ولا راد لقضائه.

وأخذت أردد بالعربية:

- الحمد لله، الحمد لله، قدر الله وما شاء فعل.

ولم أشك لحظة في أنها لم تفهم ما أقوله.

وتكررت زيارتها لي في المستشفى، فكانت تزورني كل يوم وتجلب معها زهورًا جميلة، وقد ظلت على هذا الحال طوال الأسبوع الذي قضيته في المستشفى، حتى جاء يوم خروجي وأصرت أن تقلني بسيارتها إلى المنزل، لم يكن منزلًا بالمعنى المعروف كان عبارة عن (ستوديو) غرفة وحمام ومطبخ صغير، كانت "جوليا" تزورني فيه باستمرار، كانت تحب أن تتناول الطعام الذي أطهوه بنفسي، بل كانت تحب أن تراني وأنا أطهو الطعام، وتطورت علاقتنا سريعًا، حتى جاء يوم وأخبرتها برغبتي في الزواج بها، لم أجد أي اعتراض منها وكأنها كانت تنتظر ذلك الطلب مني، وتزوجنا، وقتها لم أستطع أن أخبر أهلي بفعلتي هذه، فضلت الانتظار لأرى مدى نجاح التجربة، في هذه الأثناء ساعدتني "جوليا" في الحصول على وظيفة مرموقة في الشركة التي تمتلكها هي ووالدها، كنت أتقاضى مرتبًا مجزيًا، وعلى الرغم من أنني لم أجبر زوجتي على اعتناق الإسلام، فقد كانت

تحافظ على تقاليد الدين الإسلامي، فلم تكن تخرج دون أن تستأذنني في الخروج، وإذا خرجت لا تتأخر عن الموعد الذي حددته للعودة، كما بدأت في تغيير طريقة ملابسها؛ فكانت ترتدي ملابس طويلة، غير أنها لم تكن تضع شيئًا على رأسها، وقضينا شهر العسل وأنا ما زلت فاقد الوعي، ولكن مع مرور الوقت بدأت أشعر بما أفعله، وبدأت أدرك كل شيء جيدًا وقد حزنت بشدة، وبكيت، بكيت لأنني كنت أتمنى أن تكون نسرين هي زوجتي وليست "جوليا"! ولم يمر شهران على انقضاء شهر العسل حتى وجدت "جوليا" تخبرني بنبأ حملها، وقد كانت مشاعري مزيجًا بين السعادة والحزن، فقد كنت سعيدًا لأن الله سيرزقني بأول مولود في حياتي، وكنتُ حزينًا لأنني كنت أتمنى أن تكون نسرين هي أم هذا المولود، وأخذت أصلي وأدعو الله أن يرزقني بطفله جميلة أرى فيها حبيبتي نسرين، نعم أعترف أن "جوليا" كانت زوجة رائعة، لقد أحبتني، بشدة وأعطتني كل شيء، بل ساعدتني أيضًا في دراستي، ووفرت لي الراحة والهدوء رغم حملها.

وكان الله رحيمًا بي، فقد رزقني بك، وكنت طفلة جميلة غاية في الحسن والجمال، تجلت عظمة الخالق في خلقك، فقد وضع الله فيك كل آيات الإبداع، ولم يحرمك من شيء قط سوى الأم! فقد ماتت "جوليا" أثناء ولادتك، وبهذا كتب الله عليك أن تعيشي حياتك محرومة من نعمة الأم فاقدة حنانها وعطفها، وتوليت أنا تربيتك

بالاستعانة بإحدى المربيات الأكفاء، وخلال تربيتي لك عكفت أن أزرع فيك صفات حبيبتي نسرين، أزرع فيك طباعها ورقتها وطريقة مشيتها حتى كلامها، كنت لا أناديكِ باسمك بل اعتدت أن أناديكِ بحبيبتي حتى يومنا هذا، ومرت خمس سنوات نلت خلالها درجة الدكتوراه بتقدير جيد جدًّا، وكان بإمكاني أن أبقى في أمريكا أكثر من ذلك؛ بل كان لي الحق في الاستمرار في الحياة هناك بلا رجعة؛ لأنني أصبحت أحمل الجنسية الأمريكية، حيث إنني كنت متزوجًا بسيدة أمريكية ولدي طفلة تحمل جواز سفر أمريكيًّا، ولكنني فضلت العودة إلى مصر، وكانت أمك قد كتبت كل ثروتها باسمي على أن تؤول إلى مولودها ذكرًا كان أم أنثى بعد أن يبلغ السن القانونية، وكانت ثروة ضخمة.

وعدتُ إلى مصر والحنين إلى وطني يملؤني، والشغف لمحبوبتي يغمرني، فهي لم تغب عن خاطري لحظة واحدة، وكانت صدمة لأهلي أن يجدوا معي طفله صغيرة، ولكن صدمتهم بدأت تذبل حين بدأت أقص عليهم قصتي من البداية، وعُيِّنتُ أستاذًا بالجامعة الأمريكية، كما قمت بإنشاء شركة استثمارية بعد عودتي بعام، وبعدها توالت المشروعات الاستثمارية، وأصبحت واحدًا من ألمع رجال الاقتصاد في مصر، بل في الشرق الأوسط كله، وكانت تعاملاتي كبيرة و كثيرة؛ الأمر الذي يحتم على أن أجد بجانبي من أستشيره وأستعين به في عملي، وقد هداني الله عز وجل إلى شخصية أقل ما يقال عنها.. إنها من أعظم الشخصيات التي قابلتها في حياتي، وكانت هذه

الشخصية تتمثل في شخص المهندس شريف فتحي الذي استعنت به في إتمام العديد من الصفقات سواء المحلية أو الدولية، وقد كان إنسانًا مهذبًا لبقًا، له شخصية قوية ورأي سديد، وقد وهبه الله من الحكمة والذكاء، ما يجعل منه شخصية مرموقة بين الناس.

وكان موعد الاحتفال بعيد ميلادك العاشر قد اقترب، وقد بدأت أنشغل كعادتي بالترتيب لهذا الحفل، فأنت أغلى شيء في حياتي، وكانت حفلة بهيجة حضرها كل الأهل والأصدقاء والعاملون بالشركة وزملائي في الكلية والمهندس شريف فتحي وأسرته، وكان المدعوون يقدمون لك الهدايا وكأنك إله يقدمون له القرابين، وكنتِ أشبه بملكة يتهافت عليها جموع الناس، وجاء إليَّ المهندس شريف وقبلك ثم وجدته يقدم لي زوجته والتفتُ أصافحها، وكانت الصدمة، إن زوجته هي نفسها حبيبتي، لقد كانت زوجته هي نسرين التي أحببتها، وأنا طالب في الكلية وما زلت أحبها حتى الآن، وسرت قشعريرة في جسدي ومددت يدي أصافحها، وما إن لمست يدها حتى أحسست بذلك الشيء الأصم الذي يسكن أضلعي وقد بدأ يتحرك من سباته، وتلاقت أعيننا، ولكني لم ألبث أن أخفضتهما حتى لا يلاحظ المهندس شريف أي شيء، وقدمتك إليها، هل تتذكرين؟ ربما نسيتِ فقد مر على هذا اليوم قرابة خمسة عشر عامًا، يومها تركتك أنت تتكلمين بمفردك ودار بينكما هذا الحوار:

- إسمك إيه يا حبيبتي؟

- إسمي نسرين.

ونظرتُ إليها في هذه اللحظة فوجدتها تمسح الدموع من عينيها، وقد تظاهرت وقتها بأنها تعدل من زينتها، ثم استدارت إليك مرة أخرى وقالت لك:

-كل سنة وإنتي طيبة يا نسرين.

- ميرسي.

ثم قمتِ من المجلس وأنتِ تحملين هداياك لتضعيها في حجرتك، وعند عودتك من حجرتك فوجئتِ أنني أعلنت للمدعوين أنك سوف تغنين لهم بصوتك الذي كنت وما زلت أعشق سماعه، المفاجأة أنك تركتي كل الأغاني التي تحفظينها وبدأتِ تغنين:

في ليله عشق واخداني على شط الهوى التاني

قابلت البحر في عيونك شربت عطشت تاني

هي دى حكايتك معاي شوف بقى قلبي وجنونه

وكنت تغنينها بكل مشاعركِ كما غنتها هي لي من قبل، لقد كنت هي، والغريب أنك لا تزالين حتى الآن هي، وبعد أن فرغت من الغناء وجدت نسرين وقد وضعت يدها على رأسها وقد تظاهرت بالمرض وطلبت من زوجها أن ينصرفا واستأذنا في الانصراف.

وقد قضيتُ أيامًا وليالي بعد عيد الميلاد لا أعرف كيف أتصرف، كنت أتحدى نفسي، أتحدى مشاعري، أتحدى الماضي، وقررت بعد ذلك أن أقطع صلتي بالمهندس شريف حتى أبتر خيط الأمل الذي قد يذكرني بها، هل تعلمين لماذا؟ لأنني قررت أن اختزل كل مشاعر الحب فيكِ أنت، قررت أن أعيش وفي حياتي نسرين واحدة، الابنة هي الحبيبة والحبيبة هي الابنة، اشتريتُك وبعتُ الدنيا كلها من أجلك، فكما قلت لك.. إنها كانت الدنيا وما عليها!

ومرت الأيام والسنون وأنت تكبرين أمام عيني، وكأنك زهرة أسقيها كل يوم، وكم كانت فرحتي وسعادتي حين أرى هذه الزهرة وهى تتفتح أمام عيني، وكنت تكبرين وصفات حبيبتي تزداد تأصلًا في أعماقك، وفي إحدى الليالي وجدتك تقولين لي:

– لقد كبرتُ يا أبي، وسوف يأتي يومٌ وأتزوج فيه، وربما أسافر يومًا مع زوجي، فهل ستنساني؟

– لماذا تقولين هذا الكلام يا نسرين؟

- لا أعرف ولكن شيئًا في نفسي دفعني لأسألك هذا السؤال، وأريد منك أن تخبرني.. هل ستنساني؟

وقتها لم أستطع أن أقاوم دموعي، وبكيت بشدة وانهمرت الدموع من عيني ووجدت نفسي بحركة لا إرادية أضمك إلى صدري وكل منا يشعر بنبضات قلب الآخر، وقبلتك وأنفاسي تحمل إليك كل معاني الحنان، وقد أحسست بأنفاسك الدافئة وهي تلفحني، وقلت لك:

- ستظلين في حياتي خالدة، ستظلين في حياتي خالدة.

وفي أحد الأيام، وكان يوم 2 أكتوبر، وهو يوم مقدس في حياتنا نحتفل به كل عام، وقد كنتِ تظنين أنه يوم ميلاد والدتك، لا يا حبيبتي إنه ليس عيد ميلاد "چوليا"، لقد ماتت أمك بعد عشرة أشهر من زواجنا، وفي هذه الفترة لم نحتفل بعيد ميلادها ولو مرة واحدة! إن هذا التاريخ هو اليوم الذي عبرت فيه لنسرين عن حبي، وكنا نحتفل به كل عام أنا وهي، فهو يوم ميلادي الحقيقي، وكانت هي تقول أيضا ذلك! وفي أثناء احتفالي أنا وأنت بهذا اليوم رن جرس التليفون، وقمت لأرد وكانت المفاجأة! من على الهاتف هي نسرين حبيبتي! وقالت لي بنفس الرقة التي تملأ صوتها وكأن السنين لم تمح منها شيئا:

- كل سنة وأنت طيب يا عمر، كل سنة وحبنا خالد.

ثم أغلقت السماعة، نسرين ما زالت تتذكرني، ما زالت تحبني، بل إنها لم تنس ذلك اليوم رغم مرور كل هذه السنوات، وبعد أسبوعين من هذه المكالمة لبت نداء ربها، لقد وافتها المنية وذهبت الى جوار ربها، لقد ماتت حبيبتي، ماتت وتركتني مرة ثانية كما تركتني من قبل، فقد كنت أعيش وروحها تداعب خيالي، نسرين سأوصيك بشيء وأستحلفك بأغلى ما لديك أن تنفذي وصيتي، إن أحببتِ إنسانًا فلا تفرطي في حبك، ولا تجعليه يفلت من بين يديك، حافظي على حبك، واحميه، واعلمي جيدًا أن من سيحبك مهما كان فقيرًا فهو غني بحبه لك، فلا تجعلي شهوات الدنيا تحول بينك وبين حبك، واجعلي من حبك شيئًا خالدًا، لا تمحوه السنون، هذه وصيتي لك يا أحب الناس وأغلى الناس.

- وهنا انتهت قصة أبي ذي القلب الشغوف، الذي لم يمر عام على وفاة حبيبته إلا وكان قد وافته المنية لتلحق روحه الطاهرة بروح من أحب طيلة حياته، لقد كان أبي محقًا حين قال لي.. إن روحيهما متآلفتان، فقد كانا في الدنيا معًا، وحين تركت حبيبته دنيانا أبت روحه الكريمة أن تتركها وحيدة، فطارت لتلاحقها، عسى ربي أن يجمعهما في جنة الخلد معًا، فهل بعد ما قصصته عليك لا تزال ترفض قرار زواجي بهذا الشاب البسيط يا دكتور خالد؟

مسح الدكتور خالد دموعًا كانت قد انسابت من عينيه أثناء حديثه مع نسرين، وقال:

- لقد استطعتِ يا نسرين بقصة والدك أن تحركي قلبًا كان قد عفا عليه الزمن منذ أزل بعيد، بل ربما تكون هذه هي المرة الأولى التي يتحرك فيها هذا القلب بهذا الشكل، لقد علمتِني يا ابنتي شيئًا لم أكن لأتعلمه لولا حديثي معك، لقد علمتِني ما هو الحب الحقيقي، الحب بشغف، كيف أكون عاشقًا، فقد عشت عمري كله أجهل الحب بهذا الشغف، حتى قصصت علي قصة والدك ذي القلب الشغوف، لقد علمتِني درسًا أتمنى من الله أن يهبني الحياة لأعلم أبنائي كيف يكون الحب والإخلاص.

أحبِّي هذا الشاب يا نسرين وأخلصي له، واعلمي جيدًا أنه غني، غني بحبه لك وبإخلاصه، غني بقلبه الكبير، أحبيه ولا تفرطي في حبك، حافظي على حبك، واحميه و اجعلي منه شيئا خالدًا، اجعلي قلبك دائماً شغوفًا بحبه.



يومَ تَغْربُ الشَّمس



كانت تعيش في ترف،كل ما تتمناه من متا ع الدنيا رهن إشارتها. تعيش وسط أسرة وأهل يعشقونها،كانت محط إعجاب بل وحسد كل من جاوروها وعاشروها، غير أنها كانت وحيدة، تدخل وتخرج والكل يرمقونها بنظرات التأمل والإعجاب، ولكن من يشعر بما في داخلها.

وهناك كان يعيش هو في عالم من الهدوء، بسيط،حالم، متناقض أحياناً، يهفو قلبه شوقًا، يحب في زمن فرضت فيه العقوبات على كل من أحب، أحبها بشدة، حلم أن تكون رفيقته، ولكن كيف وهو لا يجرؤ على النظر إليها، فهي تعيش في عالم آخر غير عالمه، فبرغم حبه الجم لها فقد كان أهون عليه أن ينظر إليها من بعيد عن أن يفقدها مطلقًا، فالقرب منها يعني النهاية الحتمية لكل شيء.

كان يختلس النظر إليها، لا ينظر إليها إِلّا من طرف خفي لعله يرى عينيها؛ كان يحضر في كل مكان هي فيه لعله يستنشق نسمة كانت

قد استنشقتها من قبل، حتى أنه كان يسير في كل درب سارت هي فيه، فربما قدماه تطآن موطئًا سارت عليه بقدميها، أحبها بكل كيانه، حتى أنه أصيب بشيء من الجنون النسبي، فحين كان يسمع ضحكتها كان قلبه يتراقص فرحًا، وحين كان يرى حزنًا في عينيها كانت الدنيا كلها تكفهر في عينيه، فلا يعرف للطعام ولا للنوم لذة.

لم تكن تشعر به تماما، حتى أنها ربما لم تكن تراه، فهو بالنسبة لها لا شيء، ولكن هي بالنسبة له كل شيء، كان يعلم ذلك جيدًا، ولكنه لم يعر هذا اهتمامًا.

وفي يوم من الأيام علم بنبأ اقتراب موعد زفافها، لم يحرك هذا منه شيئًا فهو لم يطمع في الزواج بها؛ لأنه ببساطة لا يجرؤ على القرب منها، وكيف يقترب منها وهى تعيش وسط النجوم وهو قابع في أرض تغصُّ بالأحلام؟!

كان يتحسس خطاها، يسير إلى جوارها من دون أن تدري أو تشعر ومرت الأيام، وتزوجت بل وأنجبت وهو كما هو يحبها بكل كيانه، يخلد إلى النوم ليحلم بها وينهض ليرى عينيها.

ودخل الصبي المدرسة، كان يعرف أن هذا الولد هو كل شيء بالنسبة إليها، كانت تعشقه وهو كان يعشقه لأنها تعشقه،كان يذهب كل يوم إلى المدرسة ينتظره حتى يخرج ثم يعطيه قطعة من الشوكولاتة، كل يوم كان يفعل هذا، سنوات مرت حتى أن الصبي كان ينتظره إن تأخر لبضع دقائق.

وفي ذات يوم قال الصبي للعاشق:

- أشكرك على صنيعك يا عم، فأنت رجل لطيف، ولقد مرت سنوات وأنت تصنع كل يوم نفس الشيء، فقال له العاشق:

- أرجوك لا تقل لي يا عم وقل لي يا صديقي، ولا تسألني عن شيء، فإني والذي نفسي بيده أحبك حبًّا لا يعلمه إلا الله، ابتسم الصبي وشدَّ على يديه وقال:

- أعدك يا صديقي أن أفعل ما طلبته.

ومرت السنوات والولد والعاشق يتقابلان في كل يوم، وأصبح الولد يحكى كل شيء للعاشق ويشركه في مشكلاته، ويطلب منه النصح في كل شيء، وكان العاشق لا يبخل عليه بأي شيء، بل كان يصلي ليلاً ويسأل ربه أن يلهمه حلًّا لكل مشكلة من مشكلات الصبي حتى يزداد تعلقًا به، وهذا ما قد حدث.

وفي يوم جاء الصبي للعاشق وفي عينيه حزن دفين فسأله العاشق عن السبب فقال:

- مات أبي.

فسأله العاشق دون أن يفكر:

- وكيف حال أمك؟

أجاب الصبي:

- إنها تبكى ليل نهار.

بكى العاشق بكاءً حارًا وامتلأت عيناه بالدموع، لم يحتمل معرفة أن حبيبة عمره تبكى حزنًا، فربت على كتفي الصبي وقال:

- يا صديقي، إن أمك الآن تشعر بالوحدة، فكن لها كل شيء، كن لها حبيبًا وصديقًا، كن لها أخًا، كن لها صدرًا حانيًا ترتمي إليه كلما شعرت بالوحدة، أحبها بكل ما وهبك الله من إحساس.

ابتسم الصبي وقال:

- يا صديقي، عمري قد اقترب من الثامنة عشرة وطيلة سنوات عمري، وأنا حافظ للوعد، ولكن أستحلفك بالله أن تقول لي.. من أنت؟

نظر العاشق إلى الأرض وقال للصبي:

- يا صديقي وحبيبي وولدي، أنا من أحببت أمك عشرين عامًا، ولم أمل، وسأحبها حتى أوارى تحت التراب، أنا من كنت أسترق النظر إليها، أنا من نام يحلم بها ويدعو ربه أن تجمعهما جنة الخلد معًا. صديقي هذه إجابتي على سؤالك، ولكن رجاءً واحدًا، احفظ عني سري ولا تبح به فإني والله لم أحدث به حتى نفسي.

فقال الصبي:

- أعدك يا صديقي.

ومرت الأيام واللقاءات مستمرة، يسودها الحب والتآلف والرحمة، حتى جاء يوم، ولم يعثر فيه الصبي على العاشق، فتش عنه في كل مكان جمعهما معًا ولم يجده، سأل عنه كل الناس حتى هداه الله إلى بيت هذا العاشق، فإذا به يعرف أنه مات!

نعم قد مات، تلك الحقيقة الوحيدة في الكون، مات وتركه وحيداً، فهو لم يشعر بالوحدة طيلة حياته حتى حين مات والده، ولكنه اليوم وحيد.

ذهب إلى مقبرته وبكى كثيرًا ودعا له بالرحمة، وأن يجمع الله بين قلبه وقلب أمه تلك المرأة التي أحبها أكثر من نفسه.

وحين عاد إلى منزله سألته أمه عن سبب حزنه الظاهر في عينيه فقال لها:

- لقد مات صديقي، مات من أحبني وأحببته، هل تعلمين يا أمي من صديقي؟ إنه الرجل الوحيد الذي أحبك أكثر من نفسه، الرجل الذي عاش عشرين عامًا يحبني لأنني جزء منك، هل تعلمين يا أمي ماذا قال لي في آخر لقاء جمعنا؟ لقد أوصاني أن أدعو له بالجنة حتى يراك هناك، لعله يفوز بك في ذلك المكان.



وَرقةٌ مَطويَّة



لعلكِ أخطأتِ يا سيدتي فإن الرحلة لم تنتهِ بعد، إن الرحلة لا تزال طويلة، ربما نكون قد توقفنا للحظات، ولكننا سنكمل المشوار حتى المنتهى.

وقفت تنظر إلى الصورة المعلقة على الحائط وقتًا طويلًا، لحظات عديدة مرت وهي واقفة وكأنها عابد يتعبد في محرابه، أو كأنها عاشق يتأمل في قسمات معشوقه.

كان الجو ساكنًا والظلمة قد نشرت أجنحتها على أرجاء المكان كله، لم يكن هناك إلا ضوء خافت ضعيف استطاعت أن ترى من خلاله شخصيات تلك الصورة، لقد كانت هذه الصورة تحمل ذكرى أحلى أيام عمرها، إنها صورة عرسها، حين وقفت ترتدي ثوبها الأبيض ووقف يحيى بجانبها يرتدي حلته السوداء الرائعة،كم كان هذا اليوم مبهجًا وسعيدًا! يوم أن جمع الله بينهما. فبالرغم من أن زواجها

لم يكن نتيجة قصة حب رومانسية فقد كان زواجًا يحمل في طياته كل معاني السعادة الحقيقية، وقفت تنظر وتسبح بخيالها الفسيح في قسماته، وكأنها المرة الأولى التي تراه فيها، إنها المرة الأولى التي سيغيب عنها لفترة طويلة، إنهما لم يفترقا يومًا منذ زواجهما الذي دام خمس سنوات، كيف ستتحمل النوم بدونه،كيف ستأكل وهو بعيد عنها، لمن ومع من ستلهو وتلعب، لقد كانت طفلته المدللة وتلميذته وحبيبته، وهو كان كل شيء لها، كيف سيبتعد ولو لأيام، وطال وقوفها أمام الصورة المعلقة على الحائط حتى كسرت نبرة صوت يحيى الرقيقة كل حواجز الصمت، حين وقف بجانبها، ولف يده حول خصرها في حنان رائع، وقال لها:

– ألا زلت تذكرين هذا اليوم يا ليلى؟

– وكيف لي أن أنساه وهو يوم مولدي يا يحيى؟!

– هل تحبينني بقدر ما أحببتني في تلك الفترة؟

– بل أعشقك، كل يوم يمر علينا يزداد حبي لك فيه يا يحيى، وكأن حبنا طفل صغير نرضعه من عشقنا، ثم ها هو يكبر ويكبر ونحن ننظر إليه بسعادة، فما من يوم يمر على الطفل إلا ويزداد عمره، وما من يوم يمر على حبنا إلا ويتضاعف مرات ومرات.

جذبها يحيى من أطراف أصابعها ثم لف كلتا يديه عليها في رقة بالغة، وأخذ ينظر إلى عينيها السوداوين سابحًا بنظره في عالم من

العشق والولع والهيام، ثم قال لها كلمات حملت بين ثناياها كل معاني الحب الصادق والمشاعر الرقيقة الفياضة:

- أحبك، أحب كل ما فيك، أحب مرحك وحزنك، أحب هزلك وجدك، أحب نومك وسهدك، أحبك بكل ما أتاني الله من مشاعر، وبكل ما أكنه من أحاسيس يا ليلى، أنت كل شيء جميل في الدنيا، أعشقك.

وفي هذه الأثناء كانت ليلى أضعف من أن تنبس ببنت شفة، كانت تنظر إليه وتحاول أن تحرك شفتيها لتعبر عن حبها هي الأخرى له، ولكن كلماته كانت أقوى من أن تجعلها تتكلم، وقفت أمامه كحجر أصم يريد أن يتحرر من قيده لينطق ولكن هيهات هيهات، ثم كسرت كل هذه الأحاسيس بحضنٍ دافئ ينمُّ عن مدى الحب والاحترام بل والإجلال الذي تكنه في جنباها وفي خلجات نفسها، إحساس دافئ كان يتصاعد من أنفاسها لو أتيح له الفرصة لأحرق العالم من لهيبه، حركات قوية كانت تحدثها أصابعها على جسده تعلن فيها عن عصيانها عن البقاء أسيرة أطرافها، وتتمنى أن تظل تلك الأصابع تعيش على جسده للأبد، كان كل شيء فيها ينطق بكلمة أحبك، نبضات قلبها سريعة ومتلاحقة وكأنها قرع طبول الحرب، أنفاسها، أصابعها، نظرات عينيها الحانيتين، كل شيء، كل شيء إلا لسانها الذي بات عاجزًا عن النطق.

كسر يحيى حاجز الصمت حين قال:

- حبيبتي، لا تدعي للحزن مكانًا بيننا الآن، أخبريني.. هل انتهيت من إعداد حقيبة السفر؟

- أجل ولم أنسَ أن أضع لك مصحفك المفضل في الجيب الخارجي.

- إذن فلم يعد هناك إلا السلام حتى لا أتأخر على ميعاد الطائرة.

- سأفتقدك.

- وأنا أيضاً يا حبيبتي.

ناولته ليلى الحقيبة ونظرات الأسى والحزن تملآن جفنيها، أخذ يحيى حقيبته وقبلها وقال لها بكل حنان:

- لا اله إلا الله.

لم تقوَ على إكمال العبارة، لقد كانت كعصفورة رقيقة حلقت في فضاء سحيق، ثم أهلكها الطير فأرادت أن تحط على غصن لتستريح، إلا أن الغصن كان شائكاً ففضلت الطيران، ولكن جناحيها كانا أضعف من أن يستكملا المسيرة، فهبطت على أرض من الأحزان.. إنها أرض الواقع، واقع أليم، إنه البعد والفراق ولو لأيام قلائل، ولكنها حاولت أن تستعيد قواها التي قد خارت، وأن تستجمع الكلمات مرة أخرى، حاولت بشدة وبذلت كل الجهد، فركت

أصابعها في محاولة للتركيز، حاولت أن تشد من عضد نفسها، بدأت تطلق العنان لشفتيها لتنفرجا وتفسحا المجال للكلام ولكن! دمعة حزينة دافئة سقطت من عينيها، معلنة استسلامها! ثم أشاحت بوجهها الذي أغرقته سيول الدموع المنهمرة على وجنتيها، وهنا أمسك يحيى بكتفيها وشد عليها، وقال لها مرة أخرى:

- لا اله إلا الله يا ليلى.

في هذه اللحظة لم تجد مفرًّا من الكلام، ثم مسحت الدموع بأناملها، وقالت بصوت ضعيف متهدج به نحيب الحزن:

- محمد رسول الله يا حبيب قلبي، يحيى.. خذ هذه الورقة وأبقها معك.

أخذ يحيى الورقة المطوية ونظر إليها مبتسمًا، ثم قبض يده عليها وكأنه قد أطبق بيده على الدنيا بأسرها.

انطلق يحيى بسيارته صوب المطار، وهناك أنهى إجراءاته الروتينية سريعًا وصعد إلى الطائرة، وبدأت عجلاتها في التحرك رويدًا رويدًا حتى حلقت في السماء، يا له من منظر بديع وأنت بين السحاب! سبحان خالق الكون! استند يحيى برأسه على نافذة الطائرة. شرد ببصره بعيدًا وأخذ يتذكر حبيبته الأولى مريم، وكم كان يحبها! وكم تمنى أن تكون له زوجة! ثم تذكر نظرات زوجته ليلى وكلماتها، يا لها من زوجة رائعة! ويا لحقارة الإنسان حين تغفل عيناه عن كل هذه

الخصال الحميدة والصفات الرائعة التي تتحلى بها شخصية زوجته، وهو لا يزال يتذكر حبه الأول الذي ولّى بعيدًا منذ أن عصفت به رياح المادية والتطلع، وقلعت جذوره عواصف الطمع وحب الدنيا.

وفجأة علا صوت إحدى المضيفات من داخل كابينة القيادة لتعلن عن تقليد جديد ابتكرته شركة الطيران، وهو الاحتفال بعيد ميلاد الركاب الذين يتزامن يوم ميلادهم مع تاريخ الرحلة في محاولة لترويج اسم شركة الطيران وكدعاية تسويقية تجذب بها المسافرين للسفر عبر شركتهم، وفوجئ يحيى بأن المضيفة تعلن عن أسماء الأشخاص الذين يتزامن ميلادهم مع رحلة اليوم:

- الاسم الأول: يحيى صادق.

ذُهِلَ يحيى بشدة، إنه يوم مولده، حقًّا إنه شهر يوليو،كيف نسي هذا اليوم، ثم تمهل لحظة وتذكر أن ليلى هي التي كانت دائمًا تذكره به، لقد بدأ الآن يفهم سبب إلحاحها لتأجيل سفره، ولو لأربع وعشرين ساعة فقط،يا لها من زوجة رائعة! إنها أشبه بملاك أرسله الله إلى الأرض ليبث فيها الحب ولينشر الود والتعاطف والحنان، ثم علا صوت المضيفة مرة أخرى.

- الاسم الثاني: يحيى محمد عبد الفتاح.

ثم طلبت المضيفة من صاحبي هذين الاسمين التوجه إلى المنصة المقامة خلف كابينة القيادة لتسلم الجوائز.

وفي المكان كان يحيى يقف وبجواره إحدى المضيفات وطفل صغير لم يتجاوز السنوات الأربع، يحيى لم يكن يعرف في البداية من هذا الطفل، ولكن بعد قليل وبعد أن تسلم يحيى هديته اكتشف أن هذا الطفل هو الفائز الثاني والذي ولد في نفس يوم مولده، واسمه أيضاً يحيى وقبل أن يتوجه إلى مقعده طلبت منه المضيفة أن تلتقط له هو والفائز الثاني صورة تذكارية وبأيديهما الهدايا التذكارية التي تحمل شعار الشركة، وجاءت أم الطفل يحيى لتعدل له من هندامه؛ ليكون متألقًا أثناء التقاط الصورة، وهنا كانت المفاجأة الحقيقية! إن أم الطفل هي حبيبته الأولى مريم، يا لهول الصدمة! ويا لهذا القدر! اليوم، اليوم يكون اللقاء، لقد مضى على آخر لقاء جمع بينهما أكثر من خمس سنوات، لقد أسمت ابنها على اسمه، ألا تزال تتذكره؟ ألا تزال تحبه؟ أسئلة كثيرة دارت في ذهنه قبل أن تباغته قائلة:

-كيف حالك يا يحيى؟ لقد كنت في قمة سعادتي حين سمعت اسمك،كيف حال زوجتك؟

كان يحيى يسمع كلماتها جيدًا، ولكن هناك ثمة شيء يجعله يتلعثم قبل أن ينطق بكلمة واحدة، ولكن استطاع السيطرة على نفسه وقال لها بثبات مصطنع:

- إنني بخير يا مريم، هل هذا الطفل ابنك؟

- نعم، لقد نويت بعد أن افترقنا أن أسمي ابني على اسمك، وتمنيت أن يرث صفاتك التي أيقنت تماماً أنني لن أجد مثلها أبدًا، ولكن القدر كان أكرم مني، فقد رزقني الله بالولد الذي تمنيته وفي اليوم الذي لم يستطع خيالي - وإن اتسع - أن يحتوي مثل هذه الأمنية، وهي أن ألده في نفس يوم مولدك.

ابتسم يحيى ابتسامة صفراء، وأومأ برأسه في إشارة غريبة لا تعطى أي مفهوم، فـــيحيى لم يكن يعرف بماذا يجيب وعن أي شيء سيسأل، ولكنها عالجت الموقف سريعًا حين اصطنعت ابتسامة على شفتيها وقالت:

- هل تعمل في نيويورك؟

- لا ولكني أقصد كوبا، ونيويورك ليست إلا مرحلة للوصول إلى المقصد النهائي.

- وفقك الله يا يحيى.

مدت يدها لتصافحه ومد هو الآخر يده، ولكن كان هناك ثمة شيء يعرقله عن بسط راحة يده، إنها ورقة مطوية في يده، ما هذه الورقة، ربما تكون ورقة فارغة أو... ثم تذكر أنها الورقة التي أعطته إياها ليلى.

أخذ يحيى الورقة في يده اليسرى وشد على يد مريم بيده اليمنى، ثم انتقل إلى مقعده بعد هذه المصادفة الغريبة، استند برأسه على نافذة الطائرة مرة أخرى، ولكن هذه المرة لم يشرد ببصره، فقد أغلق عينيه، وكأنما قد أغلقهما على صورة محبوبته، أراد ألا يرى شيئًا آخر بعدها، لحظات كثيرة مرت رسم فيها خياله كل المواقف التي دارت بينه وبين مريم منذ أن التقيا للمرة الأولى وحتى آخر لقاء بينهما يوم أن قررا الفراق للأبد منذ قرابة ست السنوات، حب عميق وعاطفة قوية ربطت بينهما، مواقف عديدة تخللها ضحك ودموع، صمت وكلام، نوم وسهر إلى أن افترقا، ولكن وبعد تفكير عميق، وقف العقل عن التفكير، لقد نام يحيى، راح في سبات عميق ولم يوقظه إلا صوت المضيفة:

– سيدي، سيدي، لقد وصلنا.

– أين أنا؟

– في نيويورك.

– وأين الركاب الذين كانوا على متن الطائرة؟

– لقد نزلوا جميعًا ولكنك قد غلبك النوم، يبدو أنك كنت مرهقًا يا سيدي.

- حقًّا، لقد كنت مرهقًا بالفعل، ثم نظر إلى يمينه حيث كانت تجلس مريم وطفلها يحيى ذو السنوات الأربع، ولكنه لم يجد أحدًا على الطائرة، ثم نظر إلى المضيفة وفي عينيه سؤال عنها وعما إذا كانت قد رأتها، ولكنه تمهل لحظة، لقد شعر بالخجل أن يسألها مثل هذا السؤال، ولكنه أراد أن يتحايل عليها بسؤال آخر فقال:

- ألم يبقَ غيري على متن الطائرة؟

- نعم يا سيدي، لقد انتهت الرحلة ولقد وصلنا.

شرد يحيى ببصره لحظات وهو يتأمل في عبارة هذه المضيفة، أخذ يرددها في أعماقه كثيرًا "لقد انتهت الرحلة، لقد انتهت الرحلة"، ثم قال لها:

- لعلك قد أخطأتِ يا سيدتي، فإن الرحلة لم تنتهِ بعد، إن الرحلة لا تزال طويلة، ربما نكون قد توقفنا للحظات، ولكننا سنكمل المشوار حتى المنتهى.

كانت كلماته غريبة لدى المضيفة التي لم تفهم ما يقصده من هذه العبارة، ولكنها كانت مدركة أن كلماته لها دلالات قوية في نفسه، ولكنها ظلت على ابتسامتها التي بدأت بها الحديث، وقالت له في عبارة روتينية تفرضها عليها طبيعة عملها:

- رحلة سعيدة يا سيدي، حمدًا لله على السلامة.

- أشكرك.

وأخذ بيده اليمنى معطفه وحقيبة أوراقه وأراد أن يأخذ الهدية باليد الأخرى ولكن شيئًا كان في يده، إنها ورقة مطوية، الأمر الذي جعله يمسك الهدية بإصبعين اثنين دون الباقي.

نزل يحيى من الطائرة وهو لا يدري، ترى هل رأى حبيبته مريم حقًّا؟ أم أن كل هذه الأحداث كانت حلمًا، حيرة شديدة سيطرت على كل تفكيره، صراع قوي دار في عقله، إنه صراع بين الماضي والحاضر، صراع بين الوهم والحقيقة، صراع أطرافه الملموس و المحسوس، ثم أنهكه التفكير وسأم من الصراع الفكري الذي يعيشه، توقف عن السير وأراد أن يفعل شيئًا آخر يهرب به من التفكير، أراد أن ينأى بعقله بعيدًا عن الماضي .

وضع حقيبته على أحد مقاعد صالة مطار نيويورك، ووضع الهدية والورقة المطوية، ثم أمسك بمعطفه وارتداه، وكأنه أراد أن يخدع تفكيره وأن يتنكر، لعل هذا الفكر لا يحاصره مرة أخرى، أمسك بحقيبته وأراد أن يستكمل السير، ولكنه لم يستطع لقد أجهد التفكير عقله وجسده أيضاً، جلس على الكرسي وأمسك بالهدية وتذكر لحظة تسلمه الهدية، وتذكر الطفل (الصغير يحيى) يا له من طفل بديع بشوش الوجه! وضع الهدية مرة أخرى على الكرسي المجاور له، ثم لاحظ ورقة مطوية على الكرسي، إنها الورقة التي أعطته ليلى إياها،

ترى ماذا كتبت فيها؟ لعلها كتبت "لا اله إلا الله" ومعها الجزء الآخر "محمد رسول الله" أو... ثم لم يدع فرصة للتفكير، فقد كان عقله أضعف من أن يحوى أفكارًا أخرى، لذا لم يتردد في فتح الورقة وأخذ يقرأ ما فيها:

"حبيبي يحي، أشتاق إلى هواك، إلى نور عينيك، إلى دفء أنفاسك ونبض كفيك، أنت ملاكي وروح قلبي، أحبـــــــــك..

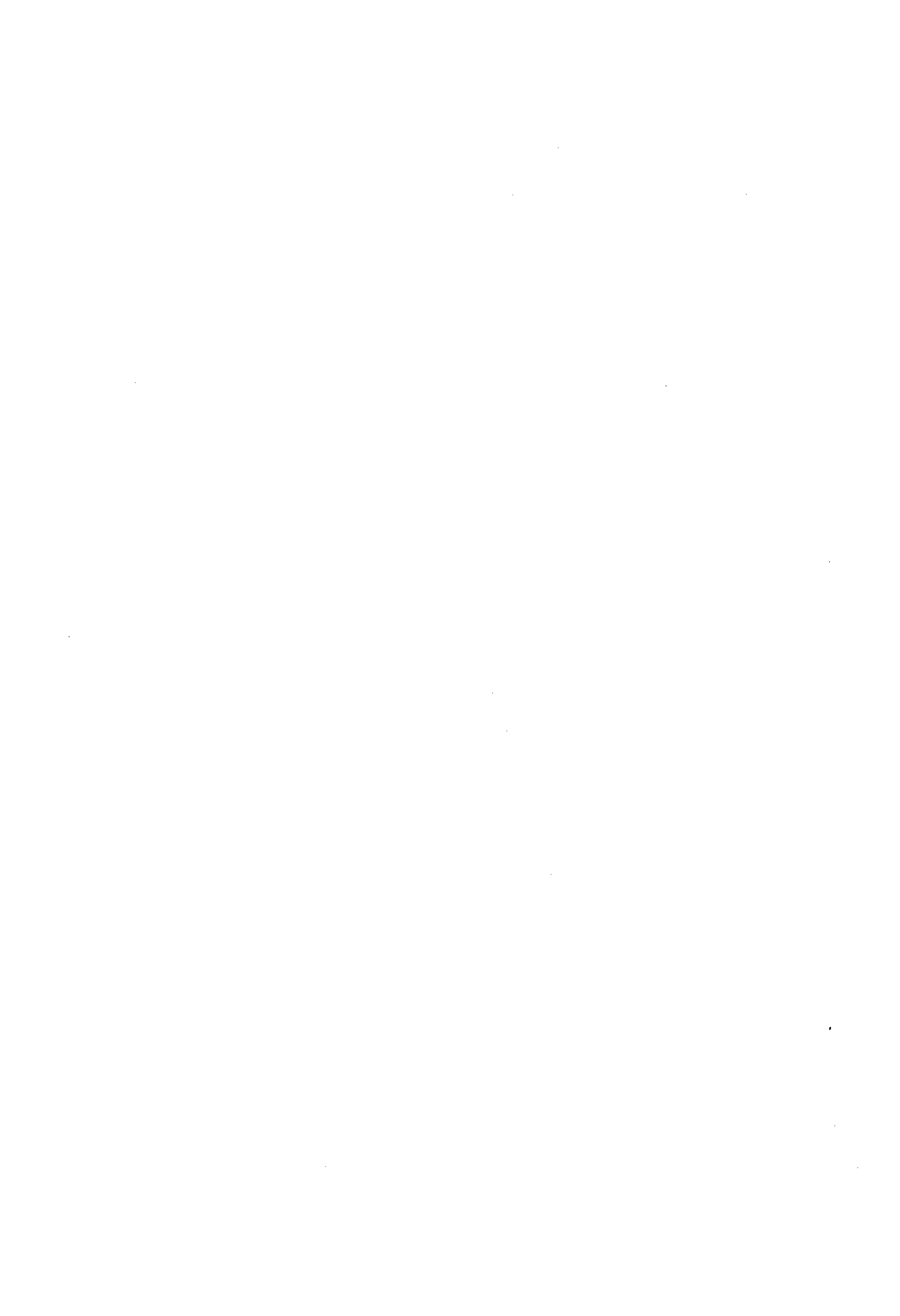
بعدك يذوبني، يدفعني للجنون، قربك يلهبني ويدفعني للموت المحتوم، الموت بين ذراعيك ونار أنفاسك وهى بالقرب من وجنتي، يا الله لم أحب قط مثلما أحببتك، ولم أعشق إنسانًا مثلما عشقتك، أنت الروح والجسد، عيناي ترافقانك أينما كنت، وأنفاسي تلاحقك أينما ذهبت،كن أفراحي، كن أشجاني، كن دموعي و ابتسامتي، كن حبيبي للأبد، أحبني وحدي، فأنا أحبك وحدك، كل عام وأنت زوجي، كل عام وأنت كلي، كل عام وأنت بخير يا ملاك قلبي.. ليلى."

وهنا لم يتمالك يحي نفسه، فقد بللت الدموع تلك الورقة الرقيقة، إنها دموع الحب ودموع الندم على التفكير فيما لا يجب التفكير فيه، دموع اليقظة من الغفلة، دموع الشوق إلى حبيبته وزوجته ليلى، ليلى وفقط وليس إلا هي.

أدخل يده في جيبه وأخرج هاتفه الجوال ودارت أصابعه على أزراره في حركة متناغمة وكأنه عازف يتراقص بأصابعه على مزماره،

رن الجرس مرتين قبل أن تنطق بصوتها الدافئ دائماً سائلة عن المتحدث، ولكنه قبل أن يفصح عن نفسه، باغتها بكلمة:

- أحبك يا ليلى



وَرقةُ شَجرٍ



دلف إلى حجرته بخطى سريعة، وقف شاردًا أمام خزانة الملابس، ينظر إليها في ربكة، حكَّ ذقنه بسبابته في حركة تنم عن الحيرة، فتح الخزانة وأخرج منها حقيبة صغيرة فتحها بعد أن أدخل الرمز السري مرتين بالخطأ قبل أن يتذكر أن عليه وضع رقم ٥ قبل ٧، أفرغ محتويات الحقيبة كلها على السرير، وأخذ يقلب في الأوراق، كان يبحث عن عقد المترل الذي ورثه عن أبيه في قريتهم الصغيرة، هو يعرف أنه لن يجلب له كثيرًا من المال، ولكن هناك حاجة ملحة للمال، ابنه الكبير سيدخل الجامعة هذا العام، وقد اختار أن يدخل كلية الهندسة في إحدى الجامعات الخاصة، ومن ثم فإن مصاريف الجامعة ستكون باهظة، قرر أن يبيع المترل ليتمكن من تعليم أكبر أبنائه في الجامعة التي اختارها.

أخذ يقلب في الأوراق الواحدة تلو الأخرى ومع كل ورقة يمسكها تظهر على وجهه علامات مختلفة، تارة تجده يتمعن في قراءة

محتويات الورقة، وتارة يبتسم حين يكتشف أنها تحمل درجات عامه الثالث الإعدادي، وكيف كان سيئًا في مادة الرياضيات، تذكر يوم أن عاقبه الأستاذ زكي وأعطاه "كحكة" في امتحان التجربة، ذلك الامتحان الذي كان قبيل امتحانات نهاية العام لتهيئة الطلاب لأجواء الامتحانات، وكيف كان مرعوبًا حين أعطى والده الشهادة ليوقعها، تذكر "العلقة" الساخنة التي صاحبت ذلك اليوم، وكيف أنه برر هذه الدرجة المتدنية بأن هذا الـ "زكي" مدرس الرياضيات يبتزه ليأخذ عنده درسًا خصوصيًّا، ثم تذكر وعده لوالده أن تكون درجات نهاية العام مرضية، ابتسم حين وقعت عيناه على رقم ٣٠ وهي درجة الرياضيات التي حصل عليها في مادة قوام درجاتها ٦٠ درجة، أي أنه لم يحصل إلا على ٥٠٪ من درجات المادة، ثم أطال النظر في ورقة ثالثة ثم نظر إلى السقف مفكرًا، وأخذ يعد بأصابعه ثم ترك الورقة، لقد كانت شهادة وفاة جدته، كان يحسب عمرها حين وافتها المنية.

أخذ يقلب في الورق كله باحثًا عن عقد البيت القروي الصغير، ثم وقع بصره على ورقة بالية اصفر لونها وثُنيت أطرافها..فتحها، فوقعت منها ورقة شجر ذابلة اسودَّ لونُها وتكسرت، أفرغ الورقة البالية من رفات ورقة الشجر الذابلة بحرص، وبدأ في فرد ثناياها ليتمكن من قراءتها، شعور غريب بعدم الاكتراث انتابه، قرأ الكلمات التي يوما خطها بيده، جاهدًا تذكر ذلك اليوم، يوم أن بعث لحبيبته

يخبرها أنه استطاع أن يستكمل ثمن الشقة التي من أجلها تغرب عن وطنه وأهله وكل أحبته، لم يكن الإنترنت ورسائل الجوال قد غزت العالم كوقتنا هذا، كانت الرسائل الورقية هي وسيلة التواصل بين الناس خاصة المغتربين، كان يرسل لها رسالة كل أسبوع، لم يكن يتلقى ردًّا، وكان يعذرها لأن طبيعة عمله لا تتيح له المكوث في مكان واحد، كتب لها خطابه هذا ووضع ورقة شجر خضراء في منتصف الورقة، قبل أن يكتب اسمها عليها، وكتب لها في أول الورقة:

"لا قيمة للأشياء إن أتت في غير أوانها".

ثم بدأ يسرد في خطابه كم أنه تعب من أجل أن يوفر ثمن الشقة، وأن غربته خلال العامين من المؤكد أن لها حكمة بالغة، حكى لها عن أحلامه في عش الزوجية، حكى عن موضع كل قطعة أثاث، وضع الخطاب وفي منتصفه ورقة الشجر الخضراء في ظرف، وأرسله كعشرات الرسائل من قبل، وبعد ثلاثة أشهر من الأحلام لم يهنأ فيها جسده ولا عقله بالراحة حان وقت عودته، كانت أول زيارة له بعد وصوله إلى مصر لبيت حبيبته، ليجد المفاجأة أنها تزوجت بل وأنجبت بعد ٦ أشهر من سفره، وتركت له كل خطاباته مع أمها، أحرقها جميعًا حتى أصبحت كالرماد، ولكن قدر إلهي أنقذ هذا الخطاب من النار، وقتها تيقن أن هناك حكمة وراء هذا القدر، أخذه ووضعه في حقيبة اعتاد أن يحفظ فيها كل أوراقه الشخصية، تزوج وأنجب وبعد

عام ونصف قابل من تغرب من أجلها فلم يتحرك له ساكنًا وأدرك وقتها المعنى الحقيقي للجملة التي بدأ بها خطابه الناجي من الاحتراق.. أنه لا قيمة للأشياء أن أتت في غير أوانها.

قرابة عشرين عامًا قضاها مع زوجته أنجب خلالها ولدين وبنتين، أكبرهم على مشارف الجامعة، أطال النظر في الورقة وفي ورقة الشجر السوداء الذابلة التي يومًا كانت خضراء يانعة، تلك الورقة التي ما كان لها أن تبقى خضراء ولا أن تظل حاملة لاسم امرأة لم تصن العهد، أغمض عينيه لبرهة حاول فيها أن يغلق ذلك الصندوق الأسود المليء بالأسرار والذكريات، يد حانية ربتت على كتفه، فتح عينيه ليجد رفيقة الدرب الحقيقية تقف وفي يدها ورقة أعطته إياها، فتحها فوجدها عقد البيت الذي كان يبحث عنه، كان قد أعطاها إياه بعد وفاة والده لتضعه في حقيبة الورق، ولكنها نسيت ووضعته في حافظتها الخاصة، أدرك حينها أن ثمة شيئًا خفيًّا كان وراء نسيانها أن العقد معها، ثمة قدر دفعه ليقلب في أوراق الماضي ويرى تلك الورقة، وضع العقد جانبًا وقام من مكانه واحتضن زوجته وقبل يدها وقال لها: "أنت أفضل شيء حدث لي في حياتي، ربما هناك أشياء تحدث لتغير دفة الحياة، كم من الأشياء كانت ستتغير لو أن شيئًا واحدًا من أحداث الماضي سار في اتجاه مغاير؟ قيمة الأشياء التي تحدث لنا تكمن في حدوثها في ذلك الوقت، لو أنها حدثت في وقت مختلف لما أصبح لها قيمة، فلا قيمة للأشياء إن أتت في غير أوانها.. أحبك.

شيءٌ فيكِ يُشْبِهُني



لم يكن يدرك كم من الوقت مضى في هذا المكان الخالي تمامًا من المارة، حين فتح عينيه كان الظلام الدامس قد نشر أجنحته على كل أروقة المكان، كانت ليلة ظلماء لا قمر فيها ولا نجوم، بدأ يتحسس المكان من حوله، كمن أصيب بالعمى، يا الله! هل كف بصره؟! ولِمَ لا، لقد سمع عن حوادث فقدان بصر مفاجئ كثيرًا، تلك المرأة التي راح بصرها حين علمت بوفاة ابنها، كانت تحضر طعام الغداء ذات يوم وإذ بالباب يطرق طرقات متتالية، فهرعت إلى الباب لتجد أصدقاء ابنها يحملونه جثة هامدة، صرخت ووقعت على الأرض، وحين أفاقت كانت الصدمة، إنها لا ترى! وهذا الرجل الذي غضب من زوجته التي اعتادت النكد والمشكلات فنهرها ذات يوم بشكل عنيف واحتد عليها بصوته الأجش حتى أظلمت الدنيا من حوله، استند إلى الحائط خشية السقوط، كان أقرب تفسير له هو انقطاع التيار الكهربي، ليكتشف أنه فقد بصره للأبد، وحالات أخرى كثيرة..

أراد أن يكسر رتابة هذا التفكير؛ فأخرج سيجارة من جيبه وأشعل عود ثقاب، فاطمأن قلبه حين أبصر ضوء شعلة الثقاب، ترى كم من الوقت مضى؟ سؤال لَعِين يدور في عقله، ليس معه ساعة ولا يوجد شخص في هذا المكان اللعين، الجوال، فكرة جيدة سيرى الساعة والتاريخ في الجوال، ولكن! تبًّا للمخترعات الحديثة غير المكتملة، من صنعوا هذا الجهاز لم يكلفوا خاطرهم أن يخترعوا بطارية لا تنفد! الهاتف نفد شحن بطاريته فأصبح لا قيمة له.

ترك هاتفه المحمول وراح يسبح في واحة من الذكريات، سنوات وسنوات مضت، ترك العنان لذاكرته لتخرج كل ما في جعبتها، حتى توقف قطار الذكريات عند تلك الليلة، يوم أن رأى رفيقة الدرب لأول مرة، كان وقتها لا يزال معيدًا في كلية طب الأسنان، وهي كانت طالبة بالسنة الثالثة، فتاة ممشوقة القوام، ينسدل شعرها الأسود على ذراعيها، تتطاير منه خصلات رقيقة بفعل نسمات هواء صيف عليل، ذات وجه وضَّاء تكسوه حمرة امتزج فيها الخجل بالنضرة فرسمت لوحة فنية راقية، وعينين واسعتين توسطان وجهها المليح، رأي في جمالها صورة مقربة لما رسمه عقله الباطن عن الحور في الجنة، دنت منه في خجل تسأله عن موعد الامتحان الشفوي، تمنى لو أنها سألت سؤالًا معقدًا يحتاج إلى شرح طويل، تمنى لو أن هذا السؤال بداية لسلسلة طويلة من الأسئلة، أفكار وأمنيات كثيرة تصارعت في ذهنه قبل أن يسمعها تكرر بصوت خفيض نفس السؤال، لملم حروفًا مبعثرة، وأجاب في اقتضاب:

- الخميس القادم.

ابتسمت وشكرته وانصرفت في هدوء وهو كما هو متسمر في مكانه، وكأنه تمثال صنع توًّا في بهو الكلية!

غادر يومها الكلية وصورتها أمام عينيه لا تفارقهما، في اليوم التالي بحث عنها في كل مكان، ولكنها لم تأتِ، وتكرر البحث في كل الأيام التالية دون جدوى، حتى جاء يوم الخميس يوم الامتحان، مع كل مرة يفتح فيها الباب كان ينتظرها تدخل عليه، إلى أن جاء رقم ٧٨، انفتح الباب في هدوء ودخلت عليه كنور الشمس حين تزيح ستائر النافذة في الصباح، نظر في الورقة وقرأ الاسم "رحاب أحمد"، طلب إليها الجلوس، ولا تزال عيناه تراقبانها، لم ينتبه لكل الأشياء من حوله، قوة مغناطيسية رهيبة كانت تجذبه إليها بحركة لا إرادية، وقفت تنتظر بدء الامتحان وهو لا يزال ينظر لها كمن ينظر إلى جسم غريب في الفضاء، يطالعها بشغف حتى كسرت حاجز الصمت حين سألت بحيرة:

- متى سنبدأ الامتحان يا دكتور مروان؟

اعتدل مروان في جلسته، وكأن سؤالها أخرجه من تلك المنطقة المبهمة التي تقع بين الوعي واللا وعي، ذلك المكان الذي يقبع بلا حراك بين النوم واليقظة، عالم متوازٍ يحقق فيه الجائع شبعه والفقير غناه، يصل فيه المحب إلى سندريللا من غير تعب ولا نصب، عالم

وردي المظهر فيه تتحقق أسعد الأحلام، وتنشب فيه أبشع الكوابيس، أنت وحدك الذي يتحكم في هذه الحياة، اليوم تمتلك فيلا وسيارة فارهة، وغدًا أنت مشهور وذائع الصيت، وبعد غدٍ أنت أحد المقربين للأسرة الحاكمة..

نظر في الورق الذي أمامه وبدأ الامتحان، كل ما كان يتذكره هو أنه كان لا يرغب في أن ينتهي الامتحان لتستمر هي في الكلام، ويستمر هو في سماع صوتها العذب، انتهت الأسئلة وقبل أن تخرج باغتها بالسؤال عن رقم هاتفها المحمول، فاحمرت وجنتاها وتركت ورقة على المنضدة، وخرجت مسرعة، فتح الورقة فوجد رقم هاتفها، لقد كانت تعلم أنه سيطلب الرقم، بل كانت متأكدة، إنها تبادله نفس الشعور.

أنهى يومه وقبل أن يتحرك بسيارته طلب الرقم، فخرج صوتها العذب من الهاتف تقول له:

– انتظرتك كثيرًا.

يا الله! تلك المكالمة التي رسمت طريقًا جديدًا في حياة مروان ورحاب. وتوالت الاتصالات والمكالمات، وتقدم مروان لخطبتها التي لم تلبث طويلًا حتى أصبحت رحاب في بيت مروان زوجة وقبل انقضاء العام، الأول كانا قد رُزقا بتوأمين مالك ومعاذ، وهكذا أصبحت الحياة جنة بكل ما تحويه من معانٍ، كان مروان كثير النظر في وجه رحاب وهي

نائمة، يتفحص ملامحها، شعر كثير أنها تشبهه، ليس في الشكل فقط، ولكن حتى الطباع، لقد كانت مرآته في معظم الأشياء.

سارت الحياة على هذا النحو أكثر من خمس سنوات، جمعت بين طياتها كل الأشياء الجميلة إلى أن جاء ذلك اليوم المشؤوم، يوم أن قرر مروان أن يأخذ رحاب والولدين ليقضوا إجازة قصيرة في شرم الشيخ، وأثناء عودتهم إلى القاهرة، انحرفت عجلة القيادة وانقلبت السيارة ولم يسمع بعدها أي شيء، لم يكن يعلم وقتها كم من الوقت مر قبل أن يفيق ليجد نفسه في سرير أبيض وخراطيم تتدلى من كل أجزاء جسمه، فتح عينيه بصعوبة، وكأن جبلًا ملقًى على جفنيه، حاول أن يحرك ذراعه فما استطاع، صوته مكتوم من جراء كمامة بلاستيكية لتساعده على التنفس، سمع صوتًا في الغرفة يقول:

– حمدًا لله على سلامتك يا دكتور مروان.

حاول أن يرد فما استطاع، جاهدًا أشار إلى مصدر الصوت معلنًا رغبته في انتزاع ذلك الشيء من على فمه ليتكلم، بالفعل أزالت ممرضة الكمامة من على فمه، تحدث بصوت واهن يسأل عن زوجته وولديه، مرت دقيقتان ولم يتلقَّ أي رد، كرر السؤال بنبرة بدت أعلى قليلًا ولكن تحمل نفس الوهن، سمع نفس الصوت يقول:

– شد حيلك يا ابني واحمد الله أنك لا تزال على قيد الحياة.

لم يتمالك نفسه حاول القيام من السرير وانتزاع الخراطيم، حاول أن يصرخ ولكن الوهن منعه، حاول مرة أخرى النهوض وانتزاع الخراطيم ولكن هذه المرة قامت الممرضة بعد إشارة الطبيب بحقن مروان ليذهب في غيبوبة طويلة.

بعد أسبوع خرج من المستشفى إلى دنيا كرهها بكل ما فيها، لم يستطع التعامل مع أحد، انقطع عن العمل، وسيطر عليه إحساس باللا مبالاة، انتابته حالة من إهمال الذات وعدم الاكتراث بما يدور حوله، وكأنه أُصيب بمرض عارض يحتاج للتعافي منه، حالة يتساوى فيها الصمت بالكلام فتصبح الأحداث من حولك بلا قيمة ويسود فيها الفتور.

كل المسلمات من حوله تنهار، عفن قابع بين ثنايا ذلك الوطن، لا شيء فيه يذكره بشيء، شعور بالغربة ينتابه فلا يشعره بمن حوله، كلهم غرباء، الصمت تساوى بالكلام، كلاهما سلكا نفس المصير، اللا جدوى! كره تلك المنطقة الرمادية من حياته؛ منطقة بين النور الساطع والظلام الحالك، ذلك الوقت الذي تقرر فيه الشمس والقمر المغيب عن السماء فتختفي فيه الشمس إلا من بصيص من الضوء لا قيمة له، ويتلكأ فيه القمر عن التوسط في السماء إلا من هالة نور لا رغبة فيها، شعور يبعث بالكآبة، لا نوم يجدي ولا يقظة تفيد، وكأن الكون كله أدار ظهره له وتركه وحيدًا، لم يترك له إلا بقايا صور ممزقة لرفات حياة سكنت يومًا هذا الكون الفسيح.

ترك الدنيا من حوله وراح إلى مدافن العائلة حيث ترقد زوجته وولداه، نقل حياته بجوارهم، لم يكن يخرج من المدفن لأي سبب كان، عاش معهم بعد أن وضع صورهم أمامه بحجم كبير، حاول أهله أن يثنوه عن هذا فنهرهم بشدة، أغلق على نفسه وجثة زوجته وولديه، لم يكن يبكي بل كان صامتًا لا يتحدث، فقط ينظر إلى صورة حبيبته يتفحصها كما اعتاد أن يفعل، كان يرى كل شيء في ملامحها يشبهه، أدرك تماماً أنهما متطابقان إلى حد كبير، طال صمته حتى خاف عليها أن تمل وجوده معها، تذكر كلماتها حين كانت تقول له: "إن الصمت ليس دومًا حلًّا جيدًا بل ربما يقتل آخر أمل لمن ينتظر منك رد فعل مناسبًا". فما كان ينام قبل أن يحكي لها حدوتة كما عودها منذ أن تزوجا، كان يخاطبها ويخاطب ولديه كثيرًا حتى ظن الناس أنه فقد عقله، كان يبحث عن نفسه معها، هو ليس مروان من دون رحاب!

وفي يوم من الأيام وجد قطعة مرآة، التقطها ونظر فيها ليجد التجاعيد قد سيطرت على ملامحه، والشعر الأبيض قد كسا رأسه وفوديه، نظر إلى صورة حبيبته وولديه فوجد الزمن لم يقترب منهم، مر أمامه كل شريط حياته في لمحة واحدة، حينها أدرك أنه في المقابر، بكى لأول مرة منذ أن جاء إلى هذا المكان، بكى لأن خمسة عشر عامًا مضت وهو لا يزال فوق التراب وحبيبته تحته!

مَلِكةٌ في زَمنِ الجواري



منذ نعومة أظافرها وهي ليست كرفيقاتها في كل شيء، كانت تعيش في عالمها الخاص، فبرغم اندماجها مع الناس فإن خصوصيتها كانت لها قدسية عظيمة، أبت أن تسمح لأحد أن يخترق تلك الخصوصية!

كان الناظر إليها يعلم يقينا أنها ستصبح ذات شأن ومكانة يومًا ما، فكانت كالقمر وسط النجوم!

لم يستغرق الأمر طويلًا لكي تستشعر هي شخصيًّا أنها ليست كسائر من حولها، كانت تعرف أن ثمة شيئًا بداخلها يجعلها ليست كباقي قريناتها، ربما يكمن هذا الشيء في نضجها المبكر أو في أحلامها.

كانت تحلم بالطيران والتحليق في فضاء سحيق بعيدة عن صخب الواقع، كثيرًا ما رفعت يدها لعلها تلامس السقف، كانت على يقين تام أن يومًا سيأتي وستلامسه!

بين الحين والآخر كانت تخرج من عالمها الخاص لتعيش في عالمنا، ذلك العالم الذي دنسته رذائل البشر من كذب ونفاق، عالم ممتلئ بالخداع والزيف! لم تكن تستطيع أن تصمد في عالمنا كثيرا، فما خلقت إلا لتكون ملكة، والملكة لها هودج وعرش وقصر، وحياة الملكات ليست كحياة الجواري!

باتت كعصفور صغير متمرد على محبسه، عيشة ذات بهجة ولكنها كانت معصوبة العينين مغلولة اليدين، لم تكن تعبأ أو تكترث بمظاهر البهجة من حولها، فطارت إلى عالمها! لم يكن عالمًا ممهدًا ولم تكن طرقه معبدة، بل كان عالمًا مكتظًّا بأغصان وأفنان ذات شوك، ولكن فيه كانت تشتم طعم الحرية!

لم تكن تحلم بعرش لجي، ولا بصرح ممرد من قوارير! كانت تحلم بالطيران، ليالي كثيرة أغمضت فيها عينيها وسبحت بين طيات السحب في عالم ثري بالخواء، لا فيه دنس البشر ولا ضجيج المدنية، عالم لا حدود لمعالمه، نقطة بدايته الأمل ونقطة نهايته حين تخور القوى، فلا أول له ولا آخر عنده!

لم تكن تعبأ بمعتقدات فكرية ولا بموروثات اجتماعية من شأنها تقييد حرياتها، كانت ترى أن احترام من حولها واجب ولكن حبها لنفسها فرض! كثيرًا ما كانت تسأل عن النار مخافة أن تحرقها، بيد أن شوقها للجنة غالب، الناس كثيرًا يسألون عن الخير، أما هي فشغلت

نفسها في البحث عن مواطن الشر خشية أن يصيبها،كانت تؤمن أننا فطرنا على الخير، فما من داعٍ للسؤال عنه!

ملكة هي في كل شيء، في أكلها وشربها، في ملبسها ونومها، في ابتسامتها، حتى في غضبها رحيمة، وللملوك رحمات خاصة يستمدها الصالحون والصالحات من ملك الملوك! كانت إذا مرت بعصفور يشرب من بركة ماء، وقفت عن الحركة ولا تمر بجواره خشية أن تخيفه، وكانت تبتغي في ذلك وجه ملك الملوك لعله يؤمنها يوم أن تبلغ القلوب الحناجر!

كانت تعشق السير على أوراق الشجر الذابلة، كانت تطرب لسماع صوت تكسيره، كانت تسأم ضعفه واستكانته، كانت ترى فيه رمز الضعف والخنوع تلك الصفات التي لا يطرب لها الملوك والملكات، وضيع في سباته، فهو ينتظر قدم عابر سبيل لتحطمه أو رياح تعبث بمصيره هنا وهناك، كانت تطؤه بقدميها لتقتل كل إحساس بالضعف في داخلها، كانت ترى فيه ذل المنكسر الذي ظن يوم أن اكتسى باللون الأخضر أنه فوق كل شيء وأخذته العزة بالإثم يومًا، ها هو قد سقط وذبل وداسته الأقدام!

اتسمت بالقوة والضعف، والصلابة والهشاشة، والتعالي والخنوع، فرحها فيه حزن، وضحكها بللته الدموع، وطمأنينة بطعم القلق تعتري حياتها، عاشت سنوات طوال تبحث عن نفسها في داخلها تارة وفي عيون من حولها أخرى، عنيدة بتعقل، وتمرد يكسوه الرضا، تلك ملامحها التي جعلت منها ملكة فريدة وسط جواري ذلك الزمان!



الأبوابُ المُوصَدَة



بعد عناء يوم طويل عادت إلى بيتها منهكة، ألقت بما تحمله عند أول مقعد قابلها، وبدأت تتحرر من ملابسها طوال سيرها إلى حجرتها، فتحت خزانة ملابسها الخاصة وأخرجت قطعتين من الملابس الخفيفة، ودلفت إلى الحمَّام مستسلمة لدُشٍّ من الماء الدافئ يزيل عنها إرهاق ذلك اليوم، لفت جسدها بالمنشفة وخرجت قبل أن ترتدي ملابسها إلى حجرتها، تصفف شعرها وتضع الكريمات الخاصة بترطيب البشرة وكريمات تقي من التجاعيد، أخذت تفاضل بين زجاجات العطر الموضوعة أمامها حتى استقرت على واحدة منهن، فتحتها ووضعت نقطتين أو ثلاثًا أسفل عنقها، ارتدت ملابسها وجلست أمام التلفاز المعلق على الحائط في غرفة نومها، أخذت تقلب بين القنوات حتى استقرت على قناة تعرض فيلمًا أجنبيًّا، دخلت المطبخ، وأحضرت علبة زبادي، وملعقة وجلست على سريرها تأكل ما جلبته من الثلاجة وهي تتابع الفيلم المعروض، أنهت ما في يدها

ووضعت العلبة الفارغة جانبًا، أراحت رأسها على وسادة مائلة في وضع متوسط بين الجلوس والنوم، تناولت هاتفها المحمول لتتأكد من ضبطها المنبه على موعد اجتماع الغد، وقبل أن تعيد هاتفها إلى مكانه فتحت أحد تطبيقات الدردشة على الهواتف الذكية، وفي خانة البحث كتبت اسمه، كانت تريد أن تعرف ما إن كان متصلًا أم لا؟ صوت ما في أعماقها ينهرها، ولكن كانت تخدعه وتقول "أريد فقط أن أطمئن عليه".. الحقيقة أنها كانت تريد أكثر من ذلك! ارتبكت حين وجدته متصلًا، تركت الهاتف من يدها كمن ضُبط متلبسًا بفعل منافٍ للسلوك العام، خرجت من التطبيق مسرعة، وبعد ثوانٍ معدودة فتحته مرة أخرى، وفي هذه المرة وجدته غير متصل، شعرت بغصة في قلبها، طافت على صفحته الرئيسية في التطبيق تبحث عن كلمات كتبها تعبر عن حالته، فربما اشتاق إليها، حزنت حين لم تجد شيئًا، سألت نفسها كثيرًا، هل كان يبحث عني مثلما أبحث عنه؟ أيزال يذكرني؟ عشرات الأسئلة تناثرت في عقلها، تبًّا لكل تلك الأفكار السيئة! لماذا لا أزال أذكره! لماذا الإصرار على نبش هذا الجرح الغائر بكتف الذاكرة! أغلقت التلفاز والنور في محاولة منها للتغلب على هذه الأفكار والذكريات، أرادت أن تهرب بالنوم بعيدًا عن الصقيع الذي في كنفه تموت شمس الوصال، أرادت أن تنأى بنفسها وقلبها بعيدًا عن اللهفة التي بدأت تنمو في أحشاء الذكريات، بدأت تشعر بنبض في قلبها يحمل حنينًا إلى ماضٍ بذلت كل ما في وسعها

لكي تطرد كل آثاره من عقلها الباطن، حرقت كل مراكب وسفن العودة إلى شاطئ تلك الذكريات، ولكن ثمة شيئًا كان أقوى من كل محاولاتها، رغبة جامحة اجتاحتها كانت تدفعها للعودة مجددًا إلى السير على أشواك الماضي، رغبة حملت معها اتساعًا في فجوة النسيان والتغاضي، رغبة منحت الخطأ فرصة ليعيش حياة أخرى، تلك الرغبة التي تخرج طفل العفو من رحم القصاص يكافح في طريقه ألف ذاكرة تحتضر ليعثر على بصيص ضوء يعيد الأمل إلى تلك الحياة مجددًا،صرخة مدوية في أعماقها ترجته أن يعيدها حيث كانت ثم يرحل.

شردت بعيدًا إلي يوم أول لقاء جمع بينهما؛ مقهى على الطراز الأوروبي في وسط البلد، اعتادت الذهاب إليه بعد انتهاء ساعات العمل، وأحيانًا كانت تذهب إليه في منتصف يوم العمل حاملة الكمبيوتر المحمول وسماعات الأذن لتكمل عملها من هناك بصحبة القهوة الإسبرسو، كانت تشعر بالراحة في هذا المكان، تذكرت أول لقاء بينهما حين دخلت يومًا الكافيه ولم تجد طاولة واحدة خالية، انتظرت كثيرًا وقبل أن تتخذ قرار الرحيل وجدته جالسا وبصحبته كتاب وفي أذنه سماعة تفصله عن صخب المكان، كتاب وقهوة وموسيقى أخرجته من كوكبنا إلى عالم آخر، قررت أن تشاركه طاولته، ذهبت إليه وأشارت بيدها أمام عينيه لينتبه لوجودها، أزال السماعتين من أذنيه فطلبت منه الجلوس معه على نفس الطاولة؛ لازدحام المكان، لم يستغرق الأمر كثيرًا، وكانت قد استقرت بكل ما

تحمله على الطاولة ومعها قهوتها، أنهى قراءته ولملم أغراضه ثم ابتسم لها واستأذن وغادر، ربما يظن أي عاقل أن يومًا كهذا لم يحفر في ذاكرتها ولا في ذاكرته شيئًا، ولكن الواقع أن هذا اليوم كان يحمل بين طياته وفي ثناياه الكثير لكل منهما.

وفي اليوم التالي كان دخول الكافيه مختلفًا لكليهما، كان كل منهما يبحث عن الآخر، كل منهما قرر أن يمنح نفسه فرصة الخروج من عباءة الوحدة، يومها سألت نفسها كثيرًا.. لماذا هذا الشخص دون غيره؟! لم تجد إجابة مقنعة تبرر لها بحثها الحثيث عنه قبل أن تشعر بأصابع تربت على كتفها لتلتفت وتجده وعلى وجهه نفس الابتسامة التي ودعها بها بالأمس، دعاها للجلوس ونادى النادل وطلب منه قهوته وقهوتها الأسبرسو، اندهشت لمعرفته بنوع القهوة ومعيار السكر لتكتشف سريعًا أن السماعتين اللتين كانتا في أذنيه بالأمس لم تكونا إلا ديكورًا، وأنه كان منتبهًا لكل حركاتها منذ أن جلست معه، بل إنه كان يختلس النظر إليها منذ فترة، أخبرها أنه يعرف اسمها ومكان عملها، كانت لا تتحدث كثيرًا، اكتفت بابتسامة بلهاء على شفتين مرتعشتين ونظرة اندهاش على وجهها، كانت تسمعه بكل حواسها، أحست يومها أن حياة جديدة تفتح لها أبوابها.

وتوالت اللقاءات وتعددت الاتصالات الهاتفية على مدار اليوم، لم يفارق الهاتف يديها، فهي إما تحادثه أو تكتب له على أحد تطبيقات الهواتف الذكية، أيام كثيرة مضت وهما على نفس الحال، حتى جاء

يوم وقال لها: "أحبك"، كانت تعرف ذلك مسبقًا؛ فكل تصرفاته توحي بذلك، ورغم هذا شعرت بقشعريرة تسري في كل جسدها احتاجت بعدها إلى ثلاث أو أربع دقائق قبل أن تخبره بعدها أنها أيضًا تحبه، عاشت على هذا النحو شهرين كاملين، تشاركا فيهما في كل شيء، كانا يقضيان اليوم كله معًا، منذ خروجهما من العمل وحتى منتصف الليل، لم يتركا بعضهما البعض إلا وقت النوم، ليالي كثيرة سقط الهاتف من يد أحدهما بعد أن خارت القوى وأنهكهما إرهاق اليوم، حتى أعلن النوم حرب إبادة على كل ما تبقى من صفاء الذهن، حدد معها موعدًا للقاء والدها التي رحبت وفي غضون أسابيع قليلة كانا قد تزوجا وقضيا شهر العسل في أحد منتجعات البحر الأحمر.

ستة أشهر مرت كلمح البصر لم يسمحا خلالها أن يعكر صفو البيت أي شيء، حتى جاء يوم وعبر لها عن رغبته في أن يصبح أبًا! لا شيء في ذلك على الإطلاق، ولكن طريقته كانت توحي برغبته في زيارة الطبيب، خلال أسبوع كانا في عيادة أحد كبار أطباء أمراض النساء والتوليد في القاهرة ليكتشف المصيبة، إنها لا تنجب! لم يمنحها فرصة، لم يشفع لها الحب، لم يفكر كثيرًا، أبلغها عن رغبته في الزواج بامرأة أخرى لتنجب له، تمنت لو أنه أطلق عليها الرصاص بدلًا من إلقاء هذه الكلمات، الرصاص يقتل ولا حياة بعده، أما الكلمات فستبقيها تتعذب وهي على قيد الحياة، نعم تحبه..

ولكن كرامتها لم تتحمل فكرة الشراكة، أعفته من عناء التفكير والاختيار، طلبت الطلاق، لتعيش وحيدة.

ليالي كثيرة عاهدت نفسها ألا تقترب من صفحته على الفيسبوك، وفي كل مرة تمنت لو أنها تستطيع أن تخون كل العهود والوعود التي قطعتها على نفسها، تمنت لو أنها تستطيع أن تفتح كل الأبواب الموصدة، قاومت كل شيء حتى جاءت تلك الليلة حين قررت أن تزوره في ذلك العالم الأزرق، العالم الافتراضي، عالم الفيسبوك، فتحت صفحته فوجدت صورة باسمة له حاملًا طفلًا لا يتعدى عمره الأيام، أو ربما الساعات مكتوب أسفلها.. "رزقت اليوم بأول طفل لي.. "آدم"، ألف حمد وشكر ليك يا رب، حمدًا لله على سلامتك يا مي، قصدي يا أم آدم يا أحلى وأجمل زوجة في الدنيا".

أدركت يومها أنه لا وجود لها في حياته وأنها لم تعد حتى ذكرى! بكت كثيرًا وأغلقت صفحته إلى الأبد، وأغلقت معها كل حنين تحمله إلى الماضي، أوصدت كل الأبواب التي تؤدي إليه، حرقت كل مراكب وسفن العودة إلى الماضي، لم تدع مسلكًا واحدًا يقود إلى تلك الحياة إلا وأغلقته، كثيرًا ما راود خيالها فكرة البحث عنه، ولكن مع كل باب تمنت أن تفتحه كانت تجد ألف سبب يقاوم تلك الرغبة، كانت تتوسل لعقلها الباطن كل يوم أن يتوقف عن بث الذكريات أمام عينيها.. وليتها تنجح!

بائعُ العسل

"العسل عسل، عسل جديد، عسل الصعيد، عسل نجع حمادي يا عسل.."

هكذا كنت أسمعه كل يوم منذ أن كنت صبيًّا في المدرسة، كل يوم ومع دقات الثانية والنصف ظهرًا أسمع ذلك الطرب. صوت يأتي من الأعماق، يحمل بين ثناياه آلامًا خلفتها هموم الدنيا، صوت كله أنس وطيبة وعزة نفس، كنت أتلذذ بسماعه كل يوم.

لا يتأخر عن موعده قط، كان موعده ميقاتًا لأهل الحي، أنا ومعي كثير من الناس كنا نضبط مواعيدنا على ميعاد مروره حتى إن منهم من كان يقول: "رأيت كذا أو سمعت كذا بعد مرور بائع العسل بعشر دقائق".

لم أره من قبل، كنت فقط أسمع صوته، ربما كنت أهرب منه، ربما كنت أتحاشى رؤيته، لم أعرف لهذا سببًا واضحًا، ربما خشيت أن أرى وجْهَه فأتألم، رسمت له صورة في خيالي، رسمته رجلًا قويَّ البنية، صوته

أجش، حتى قابلته في يوم وأنا عائد من الجامعة، رأيت رجلًا هزيلًا، بنيانه ضعيف، عيناه غائرتان، تكسو وجهه تجاعيد ترسم خريطة الزمان، تلك التجاعيد التي تروي قصة حياة كل أهل الحي بمن فيهم أنا، يحمل فوق ظهره بلاصًا من الفخار وكوبًا حديديًّا.

تناقض غريب بين طعم ما يحمله على ظهره وطعم ما يحمله داخل قلبه، فالعسل لم يكن إلا سلعة يبيعها فحسب، أما الدنيا فلم تذقه إلا مرارة العيش.

أصبح بصوته أحد معالم الحي، كنت أفكر في اليوم الذي سأترك فيه حينا لأتزوج، ثمة شيء خفي جعلني أتعلق به، كنت أخشى موته، لم أتحدث معه مطلقًا، ولم أرَ غيري يتحدث معه، لولا نداؤه عند مروره لظننته أبكم، سنوات وسنوات مضت وتركت الحي، كنت أذهب مرة كل أسبوع أو أسبوعين أطمئن على والدتي، تمنيت لقاءه ولو لمرة واحدة؛ تمنيت أن أسمع صوته مجددًا، ويومًا من الأيام كنت في زيارة لأمي وقت الظهيرة ومرت الثانية والنصف ولم يمر بائع العسل، قلق عارم اجتاحني، وقفت في شرفة المنزل أجول ببصري يمنة ويسرة، أبحث عنه في وجوه المارة، أبحث عن صوت يأتي من الأعماق، لا أعرف كم من الوقت وقفت، تعبت من الوقوف وفترت عزيمتي، فقدت الأمل في رؤيته وفي سماع صوته، دخلت من الشرفة، دقائق وسمعت صوته.. "العسل عسل"، "عسل جديد، عسل الصعيد، عسل

نجع حمادي يا عسل"، هرعت مرة أخرى إلى الشرفة لأجد الوهن وقد سيطر عليه وعرج في قدمه أبطأ مشيته، لا أعرف لماذا بكيت، ربما بكيت على نفسي، كلنا سنموت ولن تبقى منا إلا ذكرى؛ إما طيبةً كطيب العسل أو سيئة، تمنيت لو أستطيع أن أريحه مِن عناء الدنيا ومُرِّها، تمنيت أن أنزل عن كاهله العسل ليذوقه بدلًا من حمله فقط، مسحت دموعي ونظرت فلم أجده، ولكن من بعيد سمعته ينادي..

"العسل عسل...".



شـارع شبرا

"عزيزتي ن. ع. من القاهرة – ربما تكونين محقة في أن الحب لا يعرف الفوارق الاجتماعية، الحب لا يعرف السن، الحب لا تعوقه المسافات، للحب لغة لا يفهمها إلا العشاق، ولكن ثمة شيئًا يقف حائلًا بين أي حبيبين، إنه الدين! ونصيحتي لكِ هو أن تبتعدي عن هذا الشاب، وأن تبدئي حياتك من جديد، وستجدين الحب الذي تبحثين عنه، ولكن مع الشخص المناسب"

كان هذا تعليق محرر صفحة بريد القرّاء بتاريخ الجمعة ٢٤ نوفمبر ١٩٨٩، تلك الكلمات التي قرأتْهَا آلاف المرات حتى حفظتها عن ظهر قلب، طوت الصحيفة ووضعتْهَا بجانب ذلك البرواز الخشبي الموضوع على الكومودينو والذي يحمل صورة ابنتها التي لم تتجاوز السنوات الأربع.

عادت بذكرياتها خمسة وعشرين عامًا حتى توقف قطار الذكريات عند تلك البناية القديمة التي تحمل رقم ٢٢ بشارع خلاط المتفرع من

شارع شبرا، تذكرت الشقة التي ولدت وتربت فيها ذات الغرف الثلاث والسقف المرتفع، وأبواب الغرف الخشبية المزدوجة المرتفعة، شقة تقبع في الطابق الثاني تحمل رقم ٤ ويافطة خشبية مكتوبًا عليها "عادل نصحي – محاسب بالجهاز المركزي للمحاسبات"، الباب دائمًا مفتوح فالشقة التي تحمل رقم ٥ والتي تحمل يافطتها اسم "مصطفي السيد – طبيب" أيضا باها مفتوح، رائحة الطعام تفوح على السلم من الطابق الأرضي إلى السطوح، لا تعرف أي الشقتين طهته، نيفين وأحمد ولدا في نفس السنة يفصل بينهما ثلاثة أشهر، العائلتان سكنتا في تلك البناية بفستانين بيضاوين وسترتين سوداوين في نفس العام أيضا، كانا كأسرة واحدة، نيفين وأحمد يلعبان معًا ويذاكران معًا حتى النوم، ليالي كثيرة باتت فيها في السرير المجاور لسرير أحمد حتى الصباح ثم تدخل لترتدي ملابس المدرسة، وكذلك الأمر عند أحمد الذي وجد نفسه كثيرًا نائمًا في تلك الغرفة وردية الحوائط.

سنوات مرت وكبرت نيفين وباتت فتاة ممشوقة القوام ذات بشرة بيضاء تكسو الحمرة وجنتيها، شعرها الأسود ينسدل على كتفيها، حتى صارت حديث كل أهل الحي، أما أحمد فكان على أعتاب التخرج في كلية الهندسة قسم التعدين، وفي السنة النهائية وقع على عقد عمل في واحدة من أكبر شركات البترول العالمية، كبر الاثنان وكبر معهما الحب؛ الأمر الذي أزعج السيد عادل والد نيفين والذي كان يشغل منصبَ وكيل وزارة بالجهاز المركزي للمحاسبات، فالأمر

لم يعد مجرد اهتمام جار بجارته ولم يعد أحمد ذلك الطفل الذي كان يبيت عندهم ويلعب مع ابنتهم، فكر كثيرًا في التحدث مباشرة مع الدكتور مصطفي والد أحمد، ولكن في كل مرة كانت تمنعه زوجته التي كانت تربطها بزوجة الدكتور مصطفى صداقة وأخوَّة عميقة، وكانت تخشى انهيار تلك العلاقة، وفضلت أن تتحدث مع نيفين مباشرة.

حاول أحمد كثيرًا، بذل كل ما في وسعه ليعيد الحياة إلى هذا الحب، بكى لوالديه، تحدث مع كل أصدقائها، استشار أصدقاءه وشيوخه، تعاطف معه القليل وحذره الجميع من مغبة تلك الفعلة، بكت نيفين كأن لم تبكِ من قبل، كانت تعرف أن كل الطرق مغلقة وأن عليها أن تعود أدراجها، كانت تعلم أن هذا الحب وُلِدَ ميتًا، حب لا نهاية له، حب حُكم عليه بالإعدام؛ لن يتركها أهلها تتزوج هذا الشاب المسلم، سيقتلونها إن فعلت هذا، مجتمع عنصري، لا حرية فيه، لم يتعاطف معها أحد، أي أحد. فقررت أن تعتزل الزواج نهائيًّا فهي لن تكون لرجل إلا لأحمد كما وعدته طيلة حياتها.

تخرجت في كلية الاقتصاد والعلوم السياسية وعملت في شركة أجنبية، تخلت عن أنوثتها وراحت ترسم طريقًا جديدًا لحياتها التي اتخذت منعطفًا جديدًا، قررت أن تتفوق في عملها وأن تعتلي أعلى المراكز، أكثرت من نشاطاتها الكنسية، كانت تمتلك ذكاء حادًّا، وأنوثة طاغية ساعداها في تحقيق طموحها، أما أحمد فقرر أن يترك

شارع شبرا وأن يشق طريقه بعيدًا عن بلدٍ كل شبرٍ فيه يذكره بحبيبته، تقدم بطلب نقله إلى الكويت لم يكن يزور مصر نهائيًا، كان يرسل دعوة زيارة لوالديه مرة كل ثلاثة أشهر أو أربعة ليقضيا معه أسبوعًا أو أكثر.

وهكذا استمرت الحياة قرابة عشرين عامًا، عشرين عامًا ونيفين أنثى بلا حب يُطفئ لهيب شوقها المنتحر، عشرين عامًا وأنوثتها تثير الأرض ولا تسقي الحرث؛ فصارت بقايا أنثى يقتلها الحنين لذكرى أجمل أيام عمرها، عشرين عامًا وهو راهب في محراب العمل، يتمزق من دون أنثى تمنحه بريق السحر وتحوله لكيان يراقص الفرح ويتنفس الحياة، لم يحاول يومًا أن يسأل عنها حتى لا يصدم بخبر زواجها واحترم والداه رغبته، فلم يتحدثا عنها يومًا، ولم يكن اسمها يومًا محور حوار مشترك بينهم.

حتى جاء يومٌ وعلم بخبر وفاة والده فقرر أن يعود إلى مصر ويمكث بها قليلًا حتى لا يترك أمه بمفردها في هذا التوقيت، رفضت أمه كل محاولاته لترك الحياة في شارع شبرا والانتقال للعيش معه في شقة اشتراها في مدينة نصر، فقرر أن يعيش هو معها في شقتهم القديمة القابعة في ٢٢ شارع خلاط من شارع شبرا، وبمجرد دخوله البناية كان القدر قد تكفل بتسطير فصلًا جديدًا من فصول تلك القصة، قابلها وهو صاعد إلى الشقة، لم تستطع السنوات أن تغير شيئًا

من جمالها، بل زادتها أنوثة؛ لم يلمح خاتمًا في إصبعها، ولم تلمح هي أيضا خاتمًا في إصبعه، لم يراوغ كثيرًا ومن دون أي مواراة سألها فعرف أنها على العهد، وتأكدت هي من صدق حبه.

أبي أن يكرر نفس الفشل، لم تمر إلا بضعة أشهر وامتلأ البيت ببكاء "نور" لتتوج قصة حب دامت بضعًا وأربعين عامًا منذ لحظة ميلادهما، بقيت على ديانتها وهو على إسلامه وسافر بحبيبته إلى الكويت لتكتب "نور" آخر فصل في أجمل قصة حب عرفها شارع شبرا!



قَلبٌ وَفِيٌّ



أحمق من ظن أن الدنيا بلا مال ولا أولاد لا تساوى شيئًا، فالدنيا تحمل بين طياتها العديد والعديد من المعاني الحلوة الرقيقة.

الناس تعتبر العملات الأجنبية الورقية عملات نادرة، والبعض يظن أن بعد الحروب المتتالية في منطقة الخليج سيصبح البترول هو العملة النادرة، وهناك من يظنون أن الزئبق الأحمر هو أندر هذه العملات، غير أنني أقسم بمن رفع السماء بغير عمد أن في الدنيا ما هو أندر من كل هذه الأشياء، إنه الوفاء!

وقف كريم بجوار النافذة المغلقة المغطاة بزخات المطر، والدموع قد بللت وجهه، وكأن عيناه قد صبغتا على الطبيعة كل قطرات المطر المتساقطة، فإذا نظرت إلى السماء ثم نظرت إلى عينيه فلا يمكن لك أن تفرق بينهما من كثرة الدموع.

شرد كريم ببصره لحظة، ثم أطلق العنان لفكره ليستعيد ذكرى الأيام الجميلة يوم أن قرر الزواج وكيف أن هذا الموضوع كان حجر

الزاوية في حياته، وكيف كانت أمه سعيدة بهذا القرار، فها هو ابنها الكبير ستفرح به وترى أولاده يلعبون من حولها ويضحكون ويبكون، كم كان هذا الحلم يراود خيالها طيلة حياتها! وها هو القدر سيمنحها فرصة تحقيق هذا الحلم.

أخذت أمه في البحث عن فتاة مناسبة ذات خلق ودين، وكما جرت العادات والتقاليد فقد عثرت الآم على ضالتها المنشودة حين التقت بإحدى قريباتها وتدعى فريدة وكانت بالفعل فريدة في كل شيء، بدءاً من شعرها إلى أخمص قدميها، وشعرت الآم بأنها تناسبه، فلم تلبث أن ذهبت لخطبتها، ولم يتردد أهل البنت في الموافقة لما كان عليه كريم من مقومات تغري أي أسرة بالموافقة على الزواج به، وسارت الأمور كما يجب، وأتم الله فرحتهم وفي عرس جميل ومتواضع اجتمع الأهل والأصحاب للتهنئة.

وبعد الزواج وبمرور الأيام لاحظ المحيطون بـــ كريم هيامه وغرامه الجارف بزوجته فريدة، وتعلقه الشديد بها، وفي المقابل كان كل المقربين من فريدة قد أعربوا عن دهشتهم البالغة لعدم مفارقة ذكر اسم زوجها كريم من لسانها، حقًّا هما مؤمنان بالحب ويعلمان أنه يزداد بالعشرة الزوجية، ولكن الذي لا يعلمانه أو لم يخطر ببالهما أنهما سيتعلقان ببعضهما البعض لهذه الدرجة، وبعد مرور ثلاث سنوات على زواجهما، كان كريم وفريدة على موعد مع القدر المحتوم،

فازدادت منعطفات الطريق، واحتد انحناؤه بعد أن ظل مستويًا طوال السنوات الثلاث، بل أكثر من ذلك فقد بدأت الدنيا تكشر عن أنيابها، حيث كان عليهما أن يواجها الضغوط من أهل كل منهما في مسألة الإنجاب، حيث إن الآخرين ممن تزوجوا معهم في ذلك التاريخ أصبح لديهم طفل أو اثنان، وهما ما زالا كما هما، وأخذت الزوجة تلح على زوجها أن يقوما بإجراء الفحوصات الطبية اللازمة عند الطبيب، لعله يكون أمرًا بسيطًا ينتهي بعلاج أو توجيهات طبية، وهنا وقع ما لم يكن بالحسبان، حيث اكتشفا أن الزوجة عقيم.

وبدأت التلميحات من أهل كريم تكثر، والغمز واللمز يزداد إلى أن صارحته والدته وطلبت منه أن يتزوج بثانية بغرض الإنجاب ويطلق زوجته أو يبقيها على ذمته إن شاء ، فطفح كيل كريم الذي جمع أهله وقال لهم بلهجة الواثق بنفسه:

"تظنون زوجتي عقيمًا؟! إن العقم الذي تحسبونه أنتم في الإنجاب، أراه أنا في المشاعر والحب الطاهر العفيف وبهذا فإنني ولله الحمد تنجب لي زوجتي في اليوم الواحد أكثر من مائة مولود، وأنا راضٍ بها وهي راضية عني، وأستحلفك بالله يا أمي ألا تذكري لي هذا الموضوع أبدًا"..

وأصبح العقم الذي كانوا يتوقعون أنه سيكون سبب فراقهم هو نفسه سببًا اكتشفت به فريدة مدى التضحية والحب الذى يكنه كريم لها، وبعد مرور أكثر من تسع سنوات قضاها الزوجان على أروع ما يكون من الحب والرومانسية، بدأت تهاجم فريدة أعراضَ مرض غريب؛ مما اضطرهما إلى الكشف عليها في أحد المستشفيات والذي قام بدوره بتحويل فريدة إلى مستشفى القصر العيني، وهنا زاد القلق لمعرفة كريم وعلمه أن المحولين إلى هذا المكان عادة ما يكون مصابين بأمراض خطيرة. وبعد تشخيص الحالة وإجراء اللازم من تحاليل وكشف طبي صارح الأطباء كريم بأنها مريضة بسرطان في المخ، وأن حجم المصابين به معدود على الأصابع، وقام الطبيب بإقناعه أن علم الطب له حدود، غير أن هذا المرض قد تعدى ذلك الحد؛ مما صعب من مهمة الأطباء، بل جعلها مستحيلة، غير أن إرادة الله لا تعرف المستحيل، ولكن علم الطب المحدود يجزم بأنها لن تعيش أكثر من عام بحد أقصى والأعمار بيد الله، ولكن الذي يزيد الألم والحسرة أن حالتها ستسوء في يومًا تلو الآخر، وأن الأفضل إبقاؤها في المستشفى لتلقى الرعاية الطبية إلى أن يأخذ الله أمانته، ولم يخضع كريم لصدمة الأطباء ورفض إبقاءها لديهم، وقاوم أعصابه كي لا تنهار، وعزم على تجهيز شقته بالمعدات الطبية اللازمة لتهيئة الجو المناسب كي تتلقى فريدة الرعاية اللازمة، فقام بشراء أجهزة ومعدات طبية تقدر قيمتها بأكثر من 50,000 جنيه، جهز بها شقته لتستقبل زوجته بعد

الخروج من المستشفى، وكان أغلب المبلغ المذكور قد استدانه بالإضافة إلى سُلفة اقترضها من البنك، واستقدم لزوجته ممرضة متفرغة كي تعاونه على القيام على حالتها، وتقدم بطلب لشركته ليأخذ إجازة من دون راتب، إلا أن مديره رفض لعلمه بمقدار الديون التي تكبدها، فهو في أشد الحاجة إلى كل مليم من الراتب، فكان أثناء عمله يكلفه بأشياء بسيطة، ما إن ينتهي منها حتى يأذن له رئيسه بالخروج، وكان أحيانًا لا يتجاوز وجوده في العمل الساعتين، ويقضي باقي يومه عند زوجته يلقمها الطعام بيديه ويضمها إلى صدره ويحكى لها القصص والروايات ليسليها، وكلما تقدمت الأيام زادت الآلام، والزوج يحاول جاهدًا التخفيف عنها، وفي أحد الأيام أعطت فريدة ممرضتها صندوقًا صغيرًا، طلبت منها الحفاظ عليه وعدم تقديمه لأيٍّ كان إلا لزوجها الحبيب كريم إذا ما وافتها المنية، وفي يوم الاثنين مساءً وبعد صلاة العشاء كان الجوُّ ممطرًا، وصوت زخات المطر حين ترتطم بنوافذ الغرفة يرقص لها القلب فرحًا، أخذ كريم ينشد الشعر على حبيبته فريدة ويتغزل في عينيها، فنظرت له نظرة المودع وهي مبتسمة له، فنزلت الدمعة من عينيه لإدراكه بحلول ساعة الصفر، وشهقت بعد ابتسامتها شهقة خرجت معها روحها وكادت تأخذ من هول الموقف روحه معها، وبعد الصلاة عليها ودفنها بيومين جاءت الممرضة التي كانت تتابع زوجته فوجدته كالخرقة البالية، فواسته

وقدمت له صندوقًا صغيرًا، قالت له بأن زوجته فريدة قد طلبت منها تقديمه له بعد أن يتوفّاها الله، فماذا وجد في الصندوق؟

زجاجة عطر فارغة، وهي أول هدية قدمها لها زوجها، وصورة لهما في ليلة زفافهما، وكلمة أحبك في الله منقوشة على قطعة مستطيلة من الفضة، وأعظم أنواع الحب هو الذي يكون في الله ورسالة قصيرة تقول فيها:

"حبيبي كريم لا تحزن على فراقي فوالله لو كتب لي عمر ثانٍ لاخترت أن أبدأه معك، ولكن أنت تريد وأنا أريد والله يفعل ما يريد".

"أخي صلاح.. كنت أتمنى أن أراك عريسًا قبل وفاتي."

"أختي مروة.. لا تقسي على أبنائك بضربهم فهم أحباب الله ولا يحس بالنعمة إلا فاقدها."

"أمي الحبيبة، أم زوجي.. أحسنت التصرف حين طلبتِ من ابنك أن يتزوج بغيري؛ لأنه جدير بمن يحمل اسمه من صالح الذرية بإذن الله."

"كلمتي الأخيرة لك يا زوجي الحبيب، يا صاحب أوفى قلب خلقه الله عز وجل، تزوج من بعد وفاتي، حيث لم يبقَ لك عذر، وأتمنى أن تسمي أولى بناتك باسمي فريدة، وأعلم أني سأغار من زوجتك الجديدة حتى وأنا في قبري."

ترى.. هل هناك ما هو أندر من عملة الوفاء في دنيانا الفانية؟!

القدر



كان كل شيء يبدو هادئًا، والصمت قد خيم على كل أروقة المكان، وقد كسا الظلام أغلب أرجاء الشقة، لم يكن هناك سوى ضوء خفي ينبعث من آخر الردهة المؤدية إلى غرفة النوم، ومن وسط جو هذا المكان الذي أشْبَهَ بصومعة أو محراب كان يجلس حسام وبجواره شقيقته شيماء.

كانا يجلسان متربعين على الأرض، وكأن الزهد قد تملكهما، فصارا لا يبغيان من هذه الدنيا سوى البقاء على قيد الحياة.

كان حسام وشيماء يتيما الأب والأم، فقد توفي والدهما إثر إصابته بتليف في الكبد، وكان حسام وقتها لم ينتهِ من المرحلة الإعدادية، أما شيماء فكانت لا تزال صغيرة تحملها أمها على كتفها، وكان لوفاة والد حسام أثرًا كبيرًا في تكوين شخصيته، فحين مرض الأب لم تكن الأسرة تملك تكاليف العملية و العلاج، فقد كان والد حسام موظفًا بسيطًا بإحدى الهيئات الحكومية، ولا يملك غير راتبه الشهري، وقد رفضت إدارة المستشفى علاج والد حسام إلا بعد

إيداع مبلغ خمسة آلاف جنيه في حساب المستشفى، ولم تستطع هذه الأسرة البسيطة تدبير هذا المبلغ الكبير، وتوفي الأب، وصار من بعدها حسام ناقمًا على المجتمع بأسره، ساخطًا على كل أفراده، لا يفكر إلا في جمع المال، أصبح يلعن الفقر في اليوم مائة مرة، إن الفقر هو سبب وفاة والده، لولا المال لكان والده معه، بجانبه إن الفقر هو السبب، ولم يحضر في ذهن حسام ولو لمرة واحدة أن القدر هو الذي حرمه من أبيه، فلو توفر المال وأراد الله وفاة والده فلا مرد لقضائه، ولكن مثل هذه الفكرة لم تأت في ذهن حسام الذي تغيرت مبادئه تمامًا، وأصبح لا يفكر إلا في المال، وكيفية جمعه بأقل مجهود وفي أسرع وأقصر وقت ممكن، وقبل أن ينتهي حسام من دراسته الجامعية كانت والدته قد وافتها المنية، ليصير هو وأخته من بعدها يتيمي الأب والأم معًا.

وبعد وفاة الأم التحقت شيماء بالعمل في أحد مصانع الملابس، فقد أصيبت بالملل من الجلوس بمفردها، فبعد انتهاء دراستها الثانوية وحصولها على الدبلوم، لم تكن تفعل شيئًا سوى الجلوس مع أمها تساعدها في إعداد الطعام، وتنظيف المنزل، ولكن بعد وفاة أمها مع من ستجلس، مع من ستتكلم، مع من ستتشاجر ثم تتصالح، فقد رحلت عنها أمها، رحلت إلى دار الخلد، إلى عالم الموت، إلى العالم المجهول الذي لا يعرفه سوى أصحابه، أما نحن فسنظل نجهله حتى نذهب إليه، ولم تجد شيماء أية معارضة من أخيها حسام الذي لم يكن

يفكر في أي شيء إلا المال وكيفية جمعه و التمتع بملذات الحياة. انتهى حسام من دراسته، ولم يفكر في التقدم لأي وظيفة، فقد كانت أحلامه أكبر من أن يكون مجرد موظف، حتى ولو كان موظفًا كبيرًا، كان يطمع في أن يكون رجل أعمال مشهورًا بثرائه الفاحش، كان يؤمن أن يومًا سوف يدق الحظ بابه، ويصبح واحدًا من أغنياء العالم. وفي أحد المقاهي، وبينما حسام جالس كعادته يحتسي كوبًا من الشاي، جلس بجانبه شاب يرتدى سلسلة ذهبية في صدره، وفي خنصره خاتم من الذهبِ أيضًا، ثم صفق بيديه ونادى بصوت عالٍ:

- واحد معسل وزود النار، مساء الفل يا أستذة

- مساء الخير، حضرتك تعرفني؟

- بصراحه لأ، بس أنا دايمًا بشوف الهيئة دى بتعدي من الشارع، ولمؤاخذة عجبني إحترامك وأنتكتك.

- يا سيدي ربنا يخليك.

- اسم الكريم إيه بالصلاة على النبي

- اسمي حسام بالصلاة علي النبي! والباشا؟

- العبد لله مدحت، ميكانيكي سيارات أد الدنيا، يعني بعون الله لا وش سلندر يهدني ولا كربراتير يكح معايا.

- إنت باين عليك دمك خفيف يا أسطه مدحت.

– إيه يا أستذة اللون ده، لأ خللي البساط أحمدي، يعني إنت حسام ولمؤخذة وأنا مدحت، أوك.

– اوك.

– شيك هاند.

– وكمان بتتكلم إنجليزي؟!

– إنجليزى وطلياني وفرنساوى وأمريكاني وكله بس الحظ مخدمش، متيجي نتمشي في الهوا شوية بدل القعدة دي .

– يالابينا.

ومنذ هذه الليلة وقد توطدت علاقة حسام بمدحت الميكانيكي بطريقة أشبه بالأفلام السينيمائية، فأصبحا لا يفترقان يومًا واحدًا في الصباح حسام نائم في منزله و مدحت في ورشته يعمل، وعندما يأتي المساء يجلسان على المقهى حيث لقاؤهما الأول، يتبادلان النكات و الأحاديث التافهة، ثم يستقلان إحدى سيارات الزبائن الموجودة بورشة مدحت ويسهران حتى الصباح الباكر يشربان الخمر، ويمارسان الجنس مع فتيات الهوى، ويفعلان كل شيء؛ وكان مدحت هو الذي ينفق علي هذه السهرات، الأمر الذي جعل حسام – الجامعي – تابعًا له، لا يرفض له طلبًا ولا يعارضه في أمر؛ مما أسعد مدحت كثيرًا؛ فهو الذي عانى كثيرًا من سباب الناس له بالفشل

وسوء الأخلاق؛ فكم من ليلية لم يغمض له فيها جفن من شدة البكاء والحزن على حاله، فها هو اليوم يجعل من شاب جامعي تابعًا له في كل تصرفاته بأمواله، وليس بشهادته التي لم يستطع الحصول عليها، إنه اليوم استطاع أن يحصل على احترام الناس له بأمواله وليس بعلمه، فقد كان حسام بالنسبة لمدحت يمثل فئة كبيرة من فئات المجتمع، فئة كان لها نصيب الأسد في التعليم، ولكنها معدومة لا تجد المال الكافي لإشباع رغباتها، وهي في نفس الوقت فئة طموحة تسعى لتحقيق ذاتها، تلهث من أجل ملذات الحياة والتمتع بها، والحصول على المال؛ لقد استطاع مدحت رغم جهله أن يقرأ ما يدور بداخل حسام، واستطاع أن يعرف نقطة ضعفه وأن يستغلها، وقد نجح.

وانقلب ليل حسام نهارًا ونهاره ليلًا؛ لا ينام إلا في الصباح الباكر، ولا يستيقظ إلا عند الظهيرة؛ أصبح لا يرى أخته شيماء فعندما يعود إلى المنزل صباحا تكون هي في عملها، أصبحت حياتهما مفككة، وأصبح كل شيء في المنزل أطلالًا، ذكرى لأيام مضت.

وفي إحدى الليالي وبينما حسام ومدحت جالسان في أحد الكازينوهات يتبادلان النكات كعادتهما، كان يجلس شادي الشاب المرهف المدلل، وقد لفت أنظار الجالسين بأناقته ووسامته بل أكثر من ذلك بثرائه الذي ظهر واضحًا حين كان يخرج علبة سجائره ووقع من جيبه حفنة من العملات الأجنبية، بالإضافة إلى النقود المصرية،

حينئذ قام المضيف على الفور بإعادها إلى شادي الذي كان في حالة سكر شديدة، وكان حسام ومدحت يتابعان الموقف جيدًا، وبسرعة شديدة كانا قد نقلا متعلقاهما إلى منضدة شادي وجلسا بجانبه

مدحت :- بندحرج التماسي.

شادي :- طب إوعي يقع من علي الترابيزة، ها ها ها.

حسام :- ده باين عليه في التراوة خالص.

مدحت :- عز الطلب، والكتكوت اسمه إيه؟

شادي :- أكيد سمه كتكوت، ها ها ها.

حسام :- بقولك إيه يا محدت يالا بينا الواد مدهول على الاخر.

مدحت :- طب وماله، ده عز الطلب، ربنا يدهوله كمان وكمان مش عندكوا في العلام بيقولوا نصايب قوم عند قوم فوائد.

حسام :- نصايب!! المهم خلي الليلة دى تعدي على خير.

مدحت :- اصبر يا حُس دي الليلة دي أنس، اسمك إيه يا حبوب؟

شادي :- اسمي شادي.

مدحت :- عاشت الأسامي يا شادي متيجي نخرج من هنا لحسن الجو حر.

شادي :- وماله نخرج يالابينا.

مدحت :- سيجارة ؟

شادي:- لأ معايا سجايري.

مدحت :- بس دي مش أي سجارة، دي حاجة تعدل الدماغ يعني تخليك طاير لفوق، فوق، فوق قوي.

شادي :- ميرسي.

حسام :- يا مدحت الواد بايظ خلقة، لحسن يجراله حاجة وإحنا مش ناقصين مصايب.

مدحت :- ياعم جمد قلبك دي دماغه توزن بلد، ولا إيه ياروش؟

شادي :- مظبوط، مظبوط، إيه هو بقه؟

مدحت :- مفيش.. حسام كان بيقول إننا جعانين.

شادي :- مظبوط، كلنا جعانين، يالا بينا نتعشى.

واستقل الثلاثة سيارة شادي الفارهة التي تنم عن ثراء فاحش، وذهبوا إلى أحد الفنادق العائمة على النيل وتناولوا أفخر الطعام؛ ثم توجهوا إلى مترل شادي ليبيتوا ليلتهم في ضيافته.

وتكررت اللقاءات، وزادت السهرات، وأصبح شادي هو الممول بدلًا من مدحت. وقد استغلاه أسوأ استغلال، فكانا لا يتركان فرصة

يمكن بواسطتها أن ينالا أكبر كم من المال إلا ويستغلانها جيدًا، وشادي لا يمل الدفع، فهو لم يتعب لحظة واحدة في جمع هذا المال، فقد نشأ في أسرة ثرية لم تعلمه كيف يعاني الأب من أجل الحصول على المال؛ كان شادي يعيش مع والديه في إحدى دول الخليج، وقد أتم المرحلة الثانوية هناك ثم عاد إلى مصر ليدخل الجامعة؛ ورفض أن يعيش مع جدته فاستأجر شقة مفروشة في أرقى أحياء القاهرة ليسوق إليه القدر حسام ومدحت.

وفي يوم من الأيام وبينما يجلس الثلاثة في شقه شادي:

شادي :- أنا زهقت يا جماعة.

مدحت :- إوعى يكون مننا يا روش.

شادي :- لأمش قصدي بس أنا زهقت من قعدتنا كدة إحنا التلاتة وشنا في وش بعض.

حسام :- طب محنا كل يوم بنخرج.

شادي :- برضه بنخرج إحنا التلاتة، مفيش حاجه معانا تحلي القعدة.

مدحت :- فهمتك يا نمس، إنت عايز مزة تطري القعدة.

شادي :- بالضبط كده.

مدحت :- غالي و الطلب رخيص، يعني إنت جيت في جمل، بس إنت إعلى وملكش دعوة.

شادي :- يعني إيه أعلى.

مدحت :- يعني تثب يا روش.

شادي :- أنا مش فاهمك يا مدحت.

حسام :- مدحت قصده أن الحاجات دي مكلفة شوية ومحتاجه فلوس.

شادي :- وماله اللي إنتو عاوزينه.

مدحت :- يبقي اتفقنا، نص ساعه ويكون الطلب جاهز.

وينزل مدحت لجلب الفتيات، فقد كانت قذارته كفيلة بأن تجعل منه شخصًا يعرف البغايا وكيفية جلبهن، وبعد أقل من نصف ساعة كان مدحت يدخل الشقة وبصحبته ثلاث فتيات من بنات الهوى، وفي حركة روتينية اعتدن القيام بها كثيرًا قامت كل فتاة لتدخل الغرفة المخصصة لها ومعها رفيقها، وبسرعة مذهلة كانت كل فتاة قد استطاعت أن تتأقلم مع رفيقها، وأصبحت الأجساد عارية والشيطان يضحك في سخرية من بني البشر الذين يحللون ما حرم الله، وانبعثت الأصوات من الغرف، والكل مشغول بحاله و العقل أصم لا يفكر، والقلوب نابضة، و الأجساد متحركة.

كانت أصوات الغرف كلها واحدة، ضحك بخلاعة ومجون، صوت قبلات وآهات ولكن ثمة شيئًا غريبًا كان يحدث؛ إن الصوت المنبعث من غرفة شادي يختلف عن باقي الأصوات؛ انه صوت بكاء.

شادي :- مالك أنا لسه عملت حاجة؟!

الفتاة :- وأرجوك متعملش!

شادي :- معملش؟! أما والله العظيم دى حكاية! أمال أنا جايبك ليه؟

الفتاة :- أنا مش بتاعت الحاجات دي، أبوس إيدك سبني، أبوس إيديك، وحياة ربنا تسبني.

شادي :- قومي إلبسي هدومك وإنزلي.

الفتاة:- ربنا يخليك.

وتنزل الفتاة، وينزل معها شادي في محاولة يائسة لأن يأتي بفتاة أخرى، ولكن ما أكثرهن في هذا الزمان، فالحصول علي فتاة الهوى لا يتطلب أكثر من سيارة فارهة وسترتمي الأجساد عند أبوابها، وبالفعل حدث وركبت الفتاة معه السيارة وبدأ في تقبيلها، وصعدا معًا إلى الشقة ودخل غرفته وبدأ في ممارسة الجنس معها، الأجساد عارية، والقلوب نابضة، و الأجساد متحركة والعقول غائبة، تائهة، صامتة.

وفي حركة اعتيادية يدخل حسام غرفة شادي ليراه ويضحك عليه، كما كان يضحك عليه مدحت من قبل حين كان ينام مع أول فتاة، وعندما فتح حسام الباب كان صوت الضحكات ليس غريبًا على أذنيه، فدقق النظر في وجه الفتاة العارية ليجد المصيبة، إنها شيماء! أخته عارية أمامه، وهو واقف عارٍ، كما ولدته أمه.

فقام شادي من مكانه ناهرًا حسام على اقتحامه غرفته دون استئذان، حينئذ تلاقت الأعين، حسام وشيماء، يا لسخرية القدر! بكت شيماء كثيرًا، بكت بكاء الخجل لا الخوف، فلِمَ الخوف؟! وممن ستخاف اليوم؟! فمن كانت تعمل له حساب قبل هذا اليوم يقف عاريًا أمامها، وذرفت عين حسام دموع الندم؛ وارتدا حسام وشيماء ملابسهما ونزلا و الدموع ملأ جفونهما متوجهين إلى منزلهما، إن تفكيره في المال وجمعه غيَّبَ عقله ووعيه وشل تفكيره وجعله ينسى كل شيء ويهمل كل شيء حتى أخته، ابتعد عن الدين لينعم بالدنيا وينسى أنه كما يدين الإنسان يدان، وهاهي الدنيا ماذا أعطته؟ الخزي والعار.. ومنذ ذلك اليوم وقد زهدا في الدنيا، باع كل شيء في المنزل واستبقى لنفسه فراشًا ينام عليه وآخر لأخته؛ وانقطعا لعبادة الله الحي القيوم الذي يمهل ولا يهمل، عاشا لله ولعبادته، زاهدين في الدنيا، داعيين الله أن يتقبل توبتهما وأن يطهر قلبيهما من الرذيلة.

وانقطعت الأصوات من المنزل، إلا من صوت تلاوة القرآن؛ أو نشيج وبكاء حار حزين ينم عن الندم والحسرة.



وُرودٌ وأشواك



كانت عقارب الساعة تقترب من الثانية صباحًا، وقد بدا كل شيء في المترل مرتبًا ومنظمًا وقد عم السكون كل أرجاء البيت، صمت رهيب لم يكسر حدته سوى دقات عقارب الساعة، ووسط كل هذا السكون الذي يخيم علي المترل كانت "رنا" تقف شاردة في شرفة شقتها التي تقبع في الطابق السابع والعشرين من العقار الضخم الذي يطل علي النيل مباشرةً، كان الطقس شديد البرودة في هذا اليوم غير أنها تحاملت على نفسها عناء البرد القارس، كانت تنتظر عودته، فلم يعتد "يوسف" أن يتأخر إلى هذا الحد خارج المترل فعمله في مكتب المحاماة الذي يمتلكه ينتهي بين العاشرة والحادية عشرة مساء، وقد اتصلت به أكثر من مرة، ولكن أحداً لم يرد عليها. بدأ القلق يتسلل إليها، شعور بالخوف سيطر على تفكيرها، أسئلة عديدة دارت برأسها، ترى ماذا حدث له؟ "يوسف" مثال للزوج المثالي الذي يحب بيته ويحترم زوجته ويعشق أولاده، كان مثالًا وقدوة يُحتذى به

لكل من عاشروه، الشيء الذي جعل "رنا" عرضة للحسد، فزوجها رجل ميسور ذو سمعة طيبة، يحبها ويحترمها، بالإضافة إلى جمالها وأناقتها اللذين جذبا إليها كل عين وقعت عليها. مع كل دقة من دقات عقارب الساعة كانت "رنا" تشعر أن جزءًا منها يموت بالبطيء، وبدأت المخاوف والأوهام تتزاحم في عقلها، وفجأة سمعت صوت الباب يُفتح، أسرعت مهرولة تجاه باب الشقة، وحين وجدته أمامها تهللت أساريرها، وبدأ الدم ينتشر في وجهها، وابتسامة صافية تسللت إلى شفتيها في براءة كالأطفال، ولكن يوسف كان شارد الذهن.

– يوسف، ما الذي أخرك إلى هذا الوقت؟ لقد كنت قلقة جدًّا عليك؛ وكدت أجن عندما تخطت عقارب الساعة الثانية صباحًا ولم أجدك معي.

– لا تقلقي عليّ يا حبيبتي، فأنا بخير.

– الحمد لله.

– هل نام الأولاد؟

– نعم، فقد انتظراك كثيرًا حتى غلبهما النعاس.

وكان ليوسف ورنا طفلان: "أمير" و"سميرة"، لم يتجاوز أكبرهما السنوات السبع.

– يوسف، أين كنت ؟

صمت يوسف ولم يجب.

– حبيبي، أين كنت لقد قلقت عليك، وقد اتصلت بك أكثر من مرة، وهاتفك كان مغلقًا.

– لقد تعطلت السيارة في الطريق الدائري وانتظرت حتى تم إصلاحها.

– ولماذا لم تتصل بي كي تطمئنني عليك؟

– نفدت البطارية.

– ما بك يا يوسف؟

– لا شيء، لا شيء، سأذهب لأنام لأنني مرهق جدًّا، وعليّ أن أستيقظ مبكرًا؛ لأذهب إلى المحكمة.

– ألا تريد أن أجهز لك العشاء؟

– لا شكرًا، أنا مرهق جدًّا، وأريد أن أنام، تصبحين على خير،

– وأنت من أهل الخير.

ذهب "يوسف" للنوم، وظلت "رنا" متسمرة في مكانها كتمثال صنع للتو، إن "يوسف" يخفي عليها شيئًا ما، لا يريدها أن تعرف ما هو هذا الشيء، إنها ليست عادته أن يتصرف معها بهذا الجفاء، هذه

هي المرة الأولي التي يذهب فيها للنوم دون أن يقبلها، أول مرة منذ أنجبا لا يدخل غرفة الأطفال ليقبلهما، بل إنه في أحيان كثيرة كان يحاول إيقاظهما ليجلسا معه بعض الوقت ولا يخرج من حجرهما إلا بعد أن تجذبه "رنا" إلى غرفه نومه حتى يأخذا كفايتهما من النوم قبل الاستيقاظ للمدرسة، هناك سر يخفيه يوسف ولا يريد البوح به! بدأت الأفكار والشكوك تتزاحم في عقل "رنا" مرة أخرى، أفاقت من شرودها على صوت مذياع المسجد معلنًا آذان الفجر، نهضت من مكانها وتوضأت وصلت الفجر، وبدأت في إعداد فطور الأولاد ويوسف في حركة روتينية اعتادتها منذ زواجها، أيقظت الطفلين وجهزتهما للمدرسة ثم أيقظت يوسف الذي نهض وبدأ طقوسه الصباحية، من استحمام وحلاقة ذقن ثم بعد ذلك ارتدى بدلته استعدادًا للنزول في حين فاجأته "رنا":

- يوسف، أريد أن أتحدث إليك قبل أن تنزل.

- عندما أعود يا "رنا".

- لا يا "يوسف"، الآن.

- ما الذي حدث لك يا "رنا" عندي محكمة اليوم وقضيتي أول "الرول"، وليس لدي وقت أضيعه في حديث صباحي يمكن أن ينتهي بمكالمة هاتفية أو في المساء حين أعود.

- لا يهمني إذا كانت قضيتك أول "الرول" أو آخره.

- "رنا" يبدو أنك لا تزالين نائمة، أراك في المساء.

تحية باهتة ألقاها، ثم رحل دون أن ينتبه لمشاعرها التي مزقها القلق والشك.

دخل يوسف مكتبه وهو لا يزال شارد الذهن مشتت الفكر كأنه ورقة شجر تتطاير في الهواء من جراء ريح عاتية فلا تقوى على الثبات والهدوء، أو كأنه جريح أسقطه الموج الهائج في دوامة بحر ليس لها أول من آخر فهو لا يستطيع مقاومة الأمواج المتلاطمة، ولا يستطيع أن يقاوم جذب المياه لأسفل، لم يخرجه من شروده سوى "أشرف" أحد المحامين في مكتبه الشهير الذي يقع بميدان ڤيني بالدقي:

- صباح الخير يا أستاذ يوسف، بالتأكيد حضرتك أتيت مبكرًا من أجل قضية مدام نجوى.

- مضبوط يا أشرف، لقد جئت من أجلها، ولكن أنت من ستذهب وليس أنا.

- أنا! كيف؟ ولماذا؟

- أريدك أن تطلب تأجيل القضية إلى موعد آخر.

- تأجيل! ولِمَ التأجيل، وكل عناصر القضية مكتملة والمكسب مضمون بإذن الله.

- اسمع الكلام يا أشرف، أنا أدرى منك بشغلي.

- تحت أمرك يا أستاذ يوسف، بعد إذنك.

وخرج "أشرف" المحامي من مكتب يوسف ليعود يوسف مرة أخرى إلى شروده، منذ أن أخبرته أميرة سكرتيرة مكتبه بالإيميل الذي وصل بالأمس من سيدة تدعى "راندا عبد الرحمن" تطلب فيه تحديد موعد معه وهو في حالة من فقدان الاتزان والتفكير والشرود، لا يمكن أن تكون صاحبة هذا الاسم هي نفسها حبيبة عمره، وأول حب في حياته قبل زواجه من رنا. إن راندا عبد الرحمن هي أول امرأة اجتاحت حياته وهو طالب في كلية الحقوق، حتى جاءت لحظه مفترق الطرق حين أخبرته راندا برغبة أسرها بزواجها برجل ثري، وأنها لا تستطيع أن تفعل شيئًا حيال ذلك الأمر، وبالفعل تزوجت وهاجرت مع زوجها الثري إلى ألمانيا؛ وانقطعت أخبارها منذ سفرها من أكثر من اثنتي عشرة سنة ربما تكون صاحبة الاسم هي سيدة أخرى تصادف أن تشابه اسمها مع اسم حبيبته الأولى، وفجأة سمع طرقات على الباب أخرجته من شروده، فأجاب:

- ادخل.

- صباح الخير يا يوسف.

- راندا! لا يمكن.

- لماذا لا يمكن؟

– لا، لا شيء، اتفضلي يا مدام راندا.

– أرجوك نادني راندا، فقط بدون مدام.

– كيف عرفتي عنواني؟

– إنها ليست معجزة يا يوسف.

– وكيف أخبارك وأخبار زوجك؟ هل لديك أطفال؟ حدثيني عن كل شيء.

– واحدة، واحدة يا يوسف.

– أولًا أنا بخير و الحمد لله، وزوجي توفاه الله منذ قرابة عام، ولدي ابنة واحدة اسمها مريم وقد ترك لي زوجي رحمه الله ثروة جيدة أريد أن أستثمرها في مشروع مربح بدلًا من بقائها في البنك قيمتها تنقص يومًا عن الآخر، وأريد مساعدتك.

– وكيف سأساعدك وأنا مجرد محامٍ لا دخل لي بالمشروعات والاستثمارات؟

– لقد فكرت أن أنشئ شركة استيراد وتصدير لتوريد أجهزة كمبيوتر ومستلزماتها، وأريدك أن تتولى المهام القانونية لإنشاء الشركة، وبعد إنشائها – بإذن الله – أريدك أن تكون المستشار القانوني لهذه الشركة فلن أجد خيرًا منك للقيام بهذا العمل.

– ولكن أنا لا أستطيع أن أترك مكتبي

- سأدفع لك راتبًا كبيرًا يغنيك عن أتعاب المكتب.

- المكتب هذا ابني، ولن أستطيع أن أتركه.

- اسمع يا يوسف، أنت ستتفرغ لي قليلًا حتى ننتهي من إنشاء الشركة، وبعد ذلك أنت سيد قرارك، إما أن تستمر في عملك في المكتب أو أن تعمل كمستشار قانوني للشركة براتب لن تحلم به.

- أريد مهلة للتفكير يا راندا، فهذا أمر ليس سهلًا، واتخاذ القرار لا يتم بهذه السرعة.

- لم تتغير يا يوسف، منذ أن عرفتك وأنت لا تُقبل علي الشيء قبل أن تدرسه جيدًا، وهذا هو سر نجاحك وتفوقك.

- أما زلتِ تذكرين هذا؟

- وكيف لي أن أنساك، أقصد أن أنسى تلك الأيام! بالمناسبة، هل تزوجت؟

- نعم، ولدي طفلان.. أمير وسميرة.

- وهل أعرف زوجتك؟

-نعم، تعرفينها، لقد تزوجت رنا.

- رنا من؟ تقصد رنا رشوان؟

- مضبوط!

- اختيار موفق، رنا كانت فتاة طيبة، سأمهلك أسبوعين يا يوسف حتى تبت في الأمر، فأنا لدي متسع من الوقت حتى يتم تحويل النقود من الخارج، وأتمنى أن تأخذ القرار بسرعة، وهذا هو رقم تليفوني، اتصل بي حين تصل إلى قرارك النهائي، ولكن اعلم أنني محتاجة إليك، محتاجة إليك أنت بالذات يا يوسف، وأنت تعرف هذا جيدًا، إلى اللقاء.

- إلى اللقاء.

وخرجت راندا من المكتب، ولكنها لم تخرج من عقله وتفكيره، لقد أحيا هذا اللقاء ذكريات أجمل أيام حياته، بات عاجزًا عن التفكير، لأول المرة يشعر بالعجز الحقيقي، هل يرفض عرض راندا ويستمر في حياته وكأن شيئا لم يكن؟ لقد عادت راندا وعادت معها مشاعر كان قد ظن أنها ماتت ولن تعود؟ ولكن ماذا سيقول لرنا؟ تلك النبتة الطيبة التي ما قصرت يومًا في حقه، رنا تغار عليه من طفليه! يا الله، لماذا عُدتِ مرة أخرى يا راندا؟! هبَّ يوسف واقفاً من كرسي مكتبه وذهب إلى كافتيريا بالقرب من جامعة القاهرة ذلك المكان الذي كان يقضي فيه كل الوقت مع راندا، وهو نفس المكان الذى قضي فيه ليلة الأمس، واضطر أن يكذب على رنا لأول مرة منذ زواجهما، إن هذا المكان يحمل في جنباته حياته أجمل ذكريات حياته التي عاشها مع راندا حلم حياته، وأمله في المستقبل الذي قضي عليه القدر في لمح البصر.

وفي تلك الفترة كانت رنا تعيش أسوأ أيام حياتها منذ أن تزوجت يوسف الذي أصبح غريبًا في كل شيء، فهو لا يتحدث مع أحد ولم يعد مهتمًا بأحوال أمير وسميرة، ولا يسألهما عن دراستهما كما كان يفعل من قبل، وفي أحد الأيام عاد يوسف كعادته متأخرًا، فوجد رنا تنتظره، بادرها بالسؤال:

– لماذا تسهرين إلى هذا الوقت يا رنا؟

– أنتظرك يا يوسف، هل تعلم كم الساعة الآن؟ إنها الواحدة بعد منتصف الليل؟

– وهل أنا طفل صغير كي تحاسبيني؟ ما الذي حدث لك يا رنا!!

– أخبرني أنت ما الذي حدث لك؟ لقد تغيرت كثيرًا يا يوسف، لم تعد يوسف الذي أعرفه، لقد أصبحت شخصًا آخر لا أعرفه، أخبرني ما بك فأنت لم تخفِ علي شيئًا مُطلقًا لا قبل الزواج ولا بعده؛ هل نسيت يا يوسف أنني كُنت صديقتك الوحيدة منذ أيام الدراسة؟ كنت تلقبني بالوزيرة التي تشير عليك بالرأي الصواب، هل نسيت كل هذا؟!

صمت قاتل ساد المكان بتره يوسف حين قال:

– لا يا حبيبتي لم ولن أنسى أنك كنت وما زلت صديقة عمري، ولكن عقلي مشغول بأشياء عديدة تحتاج إلى صفاء ذهن وتفكير كثير، وهو ما أدى إلى الحالة التي أنا فيها الآن.

وما تلك الأشياء التي تشغل تفكيرك؟ ولماذا لم تخبرني بها؟

– تجربة جديدة لا أعرف هل أخوضها أم لا؟

– أشياء عديدة، وتجربة جديدة، أنا لا أفهم شيئًا مما تقوله، فسِّر!

– سأوضح لك كل شيء، لقد عُرض علي أن أتولى المهام القانونية لإنشاء شركة استثمارية كبيرة، وبعد إنشاء الشركة أتولى وظيفة المستشار القانوني لهذه الشركة؛ وفي هذه الحالة سوف أترك المكتب نهائيًّا ومن هنا بدأ التفكير والشرود.

– وهل وصلت إلى قرار؟

– لم أصل بعد إلى ذلك؛ فإنشاء الشركة سيأخذ وقتًا وما زلت أفكر.

– ومن الذي عرض عليك هذا العمل؟

تلجلج يوسف وقبل أن يظهر عليه الارتباك، قال:

– سيدة أعمال عائدة من الخارج، وتريد أن تستثمر أموالها في مصر.

– هل أجهز لك العشاء أم ستدخل غرفتك دون أن تأكل كعادتك الجديدة؟!

- لا داعي لهذا الكلام يا رنا، وأعدك أنني سأعوضك عن تلك الأيام السخيفة، ولكنني حقًّا أريد أن أنام الآن.

ثلاثة أشهر كاملة كان يوسف يعيش في عالمه الخاص بعيدًا عن حياته تمامًا، لم تكن شقته سوى سرير ينام فيه سويعات قبل أن يتركه مجددًا ليهنأ بكل لحظة من حياته مع راندا، تلك الحياة الجديدة التي وجد فيها نفسه مرة أخرى، أما رنا فباتت جسدًا بلا روح، تعمل بقوة ديناميكية خلت من المشاعر، تقضي معظم نهارها في النوم حتى عودة الطفلين من المدرسة، تجهز لهما الغداء ثم تساعدهما في واجباتهما المدرسية ليخلدا للنوم، وتبقى هي في حيرتها، ليالي كثيرة كانت الدموع هي رفيقة وحدتها.

وفي أحد الأيام وبينما يوسف وراندا يتناولان طعام الغداء في أحد المطاعم:

- الحمد لله أنهينا اليوم كل الترتيبات الخاصة بالشركة، ولا ينقص سوى تحديد موعد الافتتاح.

- الفضل لله ثم لك أنت يا يوسف، فلولاك ما كان شيء قد تم.

- هذا الكلام مبالغ فيه، فأنا لم أفعل سوى ما كان سيفعله أي محام.

ابتسمت راندا وقالت له:

- هل تعلم أنني افتقدتك كثيرًا طوال السنوات الماضية؟

- وهل تعلمين أنني ما زلت أحبك، وأننا يجب أن نفعل ما كنا سنفعله من اثني عشر عامًا لولا أن القدر أطاح بكل أحلامنا؛ لقد أضعنا سنوات كثيرة من عمرنا يا راندا، ولا أريد أن أضيع ما تبقى من عمري بعيدًا عنك.

لم تكن تتوقع راندا جرأته في هذا العرض، ولكن!

- يوسف لقد مضى علي هذا الشيء سنوات وسنوات وأعتقد أنه لا مجال للحديث فيه مرة أخرى.

- أرجوك يا راندا لا تحرميني من آخر أمل لي في الحياة معك.

أنا آسفه يا يوسف، لن أستطيع أن ألبي لك هذا الطلب.

- إذا كان من حقك أن تقبلي أو ترفضي فمن حقي أن أعرف الأسباب.

في الحقيقة لدى أسباب عديدة، أولها أنني لدي طفلة تحتاج مني أن أرعاها، وليس لها أحد سواي، ثانيًا أنت متزوج، وثالثًا لديك طفلان، ولدى أسباب أخرى شخصية.

- أسباب شخصية، وما تلك الأسباب؟

- إنها أسباب خاصة بي ولا أستطيع أن أبوح بها لأحد.

- راندا أرجوك لا تهدمي آخر أمل لي في هذه الدنيا، أرجوك ساعديني أن أحقق حلم حياتي.

- لا يمكن يا يوسف، لا يمكن، فكّر في رنا وفي طفليك. ماذا سوف تقول لهما عندما يكبران، ويعرفان أن هناك من اغتصب حقهما؟! هل تعتقد أنهما سيحبانك حين ذاك؟! لا يا يوسف، صدقني إنك بذلك سوف تضع نفسك وتضعني معك في دوامة من المشكلات، لن تستطيع تحملها، وبدلًا من أن يكون زواجك سببًا لراحة بالك سوف يكون مصدرًا لإزعاجك، يوسف لقد وهبك الله زينتي الحياة الدنيا – المال و البنون- فلا تتمرد على ما وهبه الله لك واقنع به، واحمد الله على ذلك.

كلمات كالسكين قالتها راندا قبل أن تستأذن تاركة يوسف في حيرته، جرح غائر لم تتمكن عودتها من تضميده، بل زادت القروح ألمًا.

وحدة عاشت فيها رنا أشعرتها بغصة في قلبها، لم تعد تطيق حياتها ولا زوجها ولا حتى ولديها، لقد تحملت الكثير و الكثير ولم تعد تتحمل أكثر من ذلك، قررت أن تخرج عن صمتها، وأن تضع حدًّا لهذا العبث الذي يحدث في حياتها، وبمجرد دخول يوسف الشقة وجد رنا أمامه كقنبلة تستعد للانفجار.

- مساء الخير يا رنا.

- مساء الخير يا يوسف.

- لماذا لم تنامي إلى الآن، فالوقت أصبح متأخرًا.

- شيء جيد أنك مدرك أن الوقت أصبح متأخرًا، على العموم أنا أريد أن أتحدث معك.

- ألا يمكن أن نؤجل هذا الحديث لوقت آخر.

- الآن، الآن يا يوسف!!

- هل أعتبره أمرًا؟

- اعتبره كما تعتبره.

- وفيمَ تريدين أن تتحدثي؟

- في أحوالك التي لا أعرف سببًا لها، في حياتك الجديدة التي لم أعد أفهمها.

- هوني عليك يا رنا، فلم يحدث شيء لكل هذا.

- لم يحدث شيء لكل هذا! حقًّا، وهل هناك ما يمكن أن يحدث أكثر من هذا؟ يوسف، إن لم تخبرني الآن بكل شيء وعن سبب تغيرك المفاجئ خلال تلك الفترة الماضية فسأضطر أن أفعل أشياء لن ترضى عنها أبدًا.

- هل هذا تهديد؟

- سمِّه كما تشاء.

- وما تلك الأشياء التي لن أرضى عنها أبدًا؟

- سأطلب الطلاق.

- ماذا؟

- ما سمعته يا يوسف، سأكون أمًّا لأمير وسميرة فقط، فلقد تحملت كل هذا من أجلهما ولن أفرط فيهما أبدًا، ولن أسمح لمخلوق أن يعبث بما سهرت الليالي من أجله، هل فهمت يا يوسف؟ لن أسمح لمخلوق بهذا، حتى أنت!

كانت رنا تتكلم والدموع ملء جفنيها حتى أن صوتها كان يتحشرج في كثير من الكلام من شدة البكاء، نعم تحبه ولكن ما الفائدة وهو معها بلا جسد ولا روح، حياة باهتة تحياها لا شوق ولا لهفة فيها، حياة خالية من الدفء، وهي ليست ممن يؤمنون "بضل راجل ولا ضل حيطة"، هي ليست كذلك ولن تكون.

أنهت كلامها مع يوسف، ودخلت غرفتها وأغلقت الباب عليها وظلّت تبكي، أما يوسف فقد ظل شاردًا على أريكة في صالة الشقة حتى الصباح.

في اليوم التالي اتصل يوسف بصديق الطفولة وأقرب شخص لقلبه "محمود" يطلب مقابلته في أمر مهم، في السادسة مساء كان يوسف

ومحمود على طاولة واحدة في أحد المطاعم الفاخرة يتناولان الغداء، كان يوسف شاحب الوجه، يبدو عليه القلق لم يحتَجِ الأمر مقدمات طويلة، فقد استشعر محمود منذ الوهلة الأولى أن يوسف يمر بأزمة وأن هذا اللقاء ليس كسابق لقاءاتهما، وأن الموضوع أكبر من مجرد تناول الغداء معًا كما أخبره يوسف في الصباح.

- ما بك يا يوسف؟

- أنا في أزمة يا محمود.

- أعرف.

- ماذا تعني؟

- أخبرتني رنا منذ فترة بتغير أحوالك؟

- رنا! ولِمَ لم تتصل بي حين أخبرتك؟

- كنت أريدك أنت أن تتحدث إلي دون إلحاح مني.

- سأروي لك القصة من البداية.

ساعتان لم يتحدث محمود فيهما بكلمة واحدة، ترك يوسف يحكي كل شيء، وحين انتهى من كلامه، اعتدل في جلسته وقال:

- يوسف أنت تعرف من أنت بالنسبة إلي، أنت صديقي وأخي ومن أدعو ربي أن يظلني معه بظل عرشه يوم القيامة، يوسف أنت

أخي في الله، وحقك علي أن أنصحك لوجه الله، يا يوسف من استطاعت أن تعيش اثني عشر عامًا بدونك ولا تنتهي حياهَا مع زوجها إلا لوفاته يمكن أن تعيش باقي عمرها من دونك أيضًا، يا يوسف لا تفقد رنا والطفلين من أجل امرأة لم تقاوم أهلها قيد أنملة حين تقدم لها عريس ثري، لا تشترِ هلاكك وتعاسة زوجتك التي وقفت بجانبك بسعادة زائفة، صدقني يا يوسف، رنا تعشقك، وتقدس حياهَا معك، انظر إلى طفليك، والله إن الدنيا بما حملت لا قيمة لها وهما ليسا في حضنك، فكر جيدًا يا يوسف، ولا هَدم حياتك من أجل امرأة رفضتك مرتين، أنت تحتاج أن تقترب من رنا وطفليك، هم أكثر الناس احتياجًا إليك، فكر بعقلك وقلبك أيضا، ستجد أن كل جسدك وروحك يسيران تجاه رنا، تلك المرأة التي ما بخلت عليك يومًا بحبها وبكل ما تملك من أجل إسعادك، أغلق الباب الذي دخلت منه راندا، وابدأ حياة جديدة مع الحب الحقيقي في حياتك.

نهض يوسف من مكانه وقبل رأس صديقه وابتسم، وقال:

– سأغلق الباب، وسأبدأ حياتي من جديد مع الحب الحقيقي، رنا!

جَدَّتي



كل إنسانٍ يحيا على ظهر هذه المستديرة المسماة بالأرض له طبيعته التي تختلف عن الآخرين؛ فكل منا له طريقته الخاصة في الحياة و تبقى الطباع راسخة في حياة كل منا وتزول التطبعات، وكل وقت يعيش الإنسان فيه يتميز ببعض الأفعال و الأقوال التي تختلف في ذاتها وفيما بينها عن نظيرتها في أوقات أخرى، وكما يقولون: "كل وقت وله أدانه" وفي الدنيا أمراض كثيرة و عديدة و متنوعة وكل عصر وله مرضه، ومنها: المزمن والمؤقت،ومنها:

ما يمكن الشفاء منه أو التقليل من حدة آلامه بحسب نوع المرض، ولأن الوقاية خير من العلاج، فهناك الكثير من الأمراض التي يمكن تجنب الإصابة بها، إلا مرض الزمن أو الشيخوخة، فإن قُدِّر لك الحياة إلى هذا العمر، حتمًا ستصاب به.

ولن أذهب بعيدًا فجدتي هي أقرب و أغرب مثال عاصرته للشيخوخة.

"جدتي" عجوز متفتحة، تبلغ من العمر بضعًا وسبعين عامًا، صوتها دائم العلو، متقلبة الطباع بحيث تكون حبيبها و تنال رضاها كل الرضا إن كنت من المؤيدين لرأيها، ورحمة الله عليك وعلى والديك إن خالفتها الرأي؛ حيث تصب جامَّ غضبها عليك وتصبح عدوها اللدود، إن سبّتك فهذا دليل على عمق حبها لك، أما إن خاطبتك بلغة يغلب عليها الجدية، فاعلم أنها كانت على موعد مع الشيطان لتحيك معه خطة الانتقام منك، مواظبة على الصلوات الخمس في مواقيتها، بل تكثر من قيام الليل، وأيضًا مواظبة على سماع الراديو وتعرف اسم المذيع أو المذيعة أو المقرئ في إذاعة القرآن الكريم من أول كلمة تُنطق، اعتادت جدتي على الجلوس بمفردها، فمنذ زواج ابنتها الصغرى منذ أكثر من عشرين عامًا وهي تحيا بمفردها، لا يعيش معها أحد.

لجدتي أربعة من الأبناء على الترتيب هم: ليلى وهي متزوجة و تعيش مع زوجها في إحدى محافظات الوجه القبلي، ولا تزور أمها إلا في إجازات الصيف حيث انتهاء امتحانات أبنائها، ومحمود وهو متزوج ويعيش في أحد أحياء القاهرة، يزورها في الأسبوع مرة أو مرتين على الأكثر، وكل مرة لا يجلس أكثر من ساعة أو ساعتين، كمال هو الابن الثالث وهو دائم السفر خارج مصر، وسعاد وهي

أصغر أبنائها وأقربهم إلى قلبها، متزوجة وكانت تعيش مع زوجها في الإمارات ولا ترى أمها إلا عندما تعود إلى مصر كل عام أو عامين أحيانًا – و حين استقرت سعاد في مصر كانت دائماً تلح على جدتي أن تأتي لتجلس معها وخاصة أن زوجها ما زال بالإمارات، ولكن "جدتي" ما إن تذهب إلى بيت سعاد وتطأ قدمها عتبة البيت إلا ويبدأ الفصل الدرامي الهزلي من المسرحية، حيث تبكي وتبكي وتصرخ:

– عاوزه أروح بيتي يا ناس، روحوني – أنا إيه اللي جابني.

– يا ماما إنت لسه جايه، طيب ريحي جسمك من المشوار.

– محدش له دعوة بيا – يا ناس عايز أروح – الله!

– يا شيخة حرام عليكي فرجتي علينا الناس.

– " شكرًا يا ست سعاد يا مؤدبة، ما هو أصل أنا اللي بنت...

و تستمر "جدتي" في سب نفسها مئات المرات؛ لأنها سمحت لنفسها بهذه المهانة، أو ما تدعي أنها إهانة، وبعد مناهدات طويلة وعريضة تجلس "جدتي" وتستمر الحياة طبيعية، تارة تجدها في قمة السعادة من أثر اللمة، فهي تجلس مع ابنتها وبين أحفادها، وتارة أخرى تجدها تجلس مع نفسها، تتكلم بصوت منخفض لا يكاد يسمعه أحد، و لكن بعد تمييز كلامها تجده سبًّا ولعنًا في "سعاد وجوزها ومحمود ومراته سهام وفي العيشة واللي عايشنها و في حياتها

السودة وفي "عائشة" أختها و"عبد النبي" أخوها و...إلخ" وعندما يسألها حفيدها:

– بتقولي إيه يا جدتي؟!

– مبقولش حاجة، إنتوا هتقولولي من أولها.

– أصل أنا سمعتك بتتكلمي، فكنت بحسبك بتكلميني.

– برضه بتكلم حسبي الله و نعم الوكيل، ماشي يا أستاذ محمد، أنا أصلي اللي غلطانه إني استنيت، مالوا بيتي ده أحسن من بيتكم مليون مرة، وباكل آكل أحلى من اللي بتكله إنت وأمك وأبوك.

– خلاص يا جدتي، حقك عليا أنا آسف.

– " يا عم لا أسف و لا زفت، أديني غايرة بكرة، كلها سواد الليل، والله لو آلاقي تاكسي دلوقتي لأقوم أروح، انت مالك مبحلق في التليفون كده ليه.

– أنا قاعد ع الفيسبوك.

– وده يطلع إيه بقى الفيسبوك ده؟

ويظل محمد يشرح لجدتي ما الفيس بوك؟ وهي تتطلع إليه بانبهار، وبين الحين والآخر تصدر تعليقات غريبة جعلت محمد ينفجر ضاحكًا، ويظل النقاش الساخر حتى قبيل الفجر بدقائق، ثم تبدأ جدتي في صلاة قيام الليل حيث تصلي ركعتين ركعتين، حتى الفجر، وطبعًا الراديو

مضبوط على إذاعة القرآن الكريم، وعلى آخره يعني لا مفر و لا سبيل للنوم إلا بعد أن تنام في السادسة صباحًا، حيث لا نوم في هذا الوقت.

و تمر الأيام والسنون وينتهي "إيهاب" من المرحلة الثانوية، و"إيهاب" هو أحد أحفادها وابن ابنتها الكبرى ليلى التي تعيش مع زوجها في صعيد مصر، ويلتحق إيهاب بجامعة القاهرة، وبطبيعة الحال لن يرضى أهله أن يعيش ابنهم في المدينة الجامعية، وله بدل البيت ثلاثة! وبعد تفكير عميق قررت أم "إيهاب" أن يجلس ابنها مع جدته وبدلًا من بقائها بمفردها، سيعيش معها "إيهاب" ويسليها و يخدمها، وبالمرة يجد مكان نوم مريحًا، وطعامًا نظيفًا و صحبة طيبة، بدلًا من أن ينحرف و يسير في اتجاهات و تيارات القاهرة المزدحمة، وبالفعل يذهب "إيهاب" إلى القاهرة و يذهب إلى "جدته" التي علمت من ليلى أنه سوف يقيم معها طوال مدة الدراسة، ولم تستطع أن ترفض، فكيف ترفض مثل هذا الطلب من ابنتها الكبرى. ولكن رغم موافقتها فإنها كانت دائمًا تشعر بأن شخصًا ما سوف يقتحم حياتها و يشاركها وحدتها التي اعتادت عليها سنوات وسنوات حتى أصبحت الوحدة جزءًا لا يتجزأ من حياتها الشخصية.

بداية العام الدراسي، "إيهاب" يعيش مع "جدتي" في منزلها:

ويبدأ العام الدراسي وتبدأ معه سلسلة المواقف الدرامية الكوميدية الهزلية بين "إيهاب" و"جدتي" منذ اللحظة الأولى في اليوم الأول.

– بقولك إيه يا حاجة: ممكن توطي الراديو علشان أعرف أنام وأصحى بدري علشان أروح الكلية فايق؟

– حاضر يا سيدى – مش هنتفض من طلباتك دي بقى.

– يا جدتي هو أنا طلبت حاجة من ساعة ما جيت ؟

– لا أطلب و النبي ما أصل أبوك بيبعتلي المرتب كل شهر.

– يا ستي لا مرتب و لا دياولو إحنا عالم غلابة.

– غلابة ليه مش لاقين تأكلوا؟ و بعدين غلابة غلابة، ما هو أبوك السبب في تعاسة أمك و تشردكم و مرمتتكم.

– مرمته إيه؟ و تشرد ايه؟ إنت شايفانا بنشحت كل ده علشان الراديو!!

– يا عم لا راديو ولا زفت ملعون أبو الراديو لأبو أصحابه لأبو اللي عايزين يسمعوه لأجل خاطرك أدي الراديو (تضربه بقوة فلا يسمع له صوت) ارتحت أهو خرب يا سي "إيهاب".

– أف، استغفر الله العظيم مش هنام في الليلة السودة دي.

– "سوده عليك و على أهلك يا بان الـــ...

و تبدأ في إلقاء وابل من الشتائم على أذن "إيهاب" حتى أذان الفجر.

الساعة السابعة صباحاً :

– "إيهاب" يا أستاذ مش ناوي تروح من أولها ولا إيه؟

– قايم أهو صباح الخير يا "جدتي".

– خير!! هنجيبه منين الخير يا خويا، قوم يللا علشان تروح كليتك دي الأداب و لا التجارة أنا عارفه إنت ف أنهي داهية، داهية أما تبقى تشيلك.

–يا فتاح يا عليم ع الصبح، أنا في داهية فرنساوي، قصدي أداب فرنساوي.

– فر إيه! فرنساوي، إنت فالح إلا في الكلام الفاضي والأفلام الأجنبي، على العموم هات لنا فطار قبل ما تنزل.

– حاضر.

– و عدي على السوق هات حاجة السلطة، اسمع تنقي الخضار كويس، ولو لقيت الكوسة حلوة هات كيلو معاك، سمعت؟

– حاضر.

– هات عيش من الفرن.

– حاضر.

– وهات زيت من سيد البقال.

– حاضر.

– مالك بتقولها كده من غير نفس، هو الآكل ده هاديه لأبويا في التربة، ما هو كله لسعادتك.

– بقولك إيه هاتى الفلوس خليني أغور علشان إتآخرت.

– غور ياخويا بس متتأخرش.

وبالفعل يذهب إيهاب و يحضر الأشياء من السوق ثم يلبس بسرعة و ينزل مهرولًا إلى الجامعة حيث اليوم الأول.

و تمر الأيام سريعًا و"إيهاب" و "جدتي" في شجار دائم، فلا يمر يوم أو حتى ساعة كاملة إلا وتكون حافلة بالمواقف الدرامية الكوميدية في نفس الوقت. واقترب وقت الامتحان و يوم الامتحان يكرم المرء أو يهان، ونجاح "إيهاب" يعتبر إنجازًا يحسب "لجدتي"، أما العكس فسيعتبر تقصيرًا واضحًا من جانبها، وستكون عرضة للوم من جميع الأطراف المعنية! لذلك فقد ازداد رتم إيقاع الشجار ووصل لدرجة عالية خاصة و أن "إيهاب" مواظب على مشاهدة أغلب برامج التليفزيون وخاصة الأفلام الأجنبية ومسابقات الأغاني مثل: آراب

أيدول وَذَا ڤويس، كما أنه يعشق القراءة ولا يترك التليفون من يده فهو إما يتحدث لأحد من أصدقائه على الفيسبوك أو يطالع الأخبار، من ناحية أخرى فإن "إيهاب" بطبيعته دائم الحركة والنشاط فتجده يومًا عند صديقه "ممدوح" يذاكر معه طوال الليل، ويومًا آخر عند خالته سعاد في مصر الجديدة ليقضي معظم الوقت معها ومع أبنائها و بخاصة "أحمد" الذي يعتبره توأم روحه وكاتم أسراره وشريك مرحلة الشباب، فهما مشتركان في كثير من الأشياء ومتشابهان في أغلب الصفات، كما أن طموحهما متقارب إلى حد كبير نتيجة أنهما في نفس السن، وقد عانت "جدتي" كثيرًا من وجود "أحمد" مع "إيهاب" فاجتماعهما معًا يشكل خطورة كبيرة عليها أو بالنسبة لها فهما معًا بالنسبة لها أشبه بالحلف المتحد الذي يفكر دائماً في الإطاحة بها وبمستعمرة فكرها، و هذا يرجع إلى تأييد "أحمد" لإيهاب في أغلب بل في كل المواقف، فدائمًا يجعل منه صاحب الحق و هذا لأن "إيهاب" دائمًا يكون صاحب الحق! و لهذا السبب فقد أرادت "جدتي" كثيرًا الوقيعة بين "أحمد" و"إيهاب" كي تريح نفسها من وجع الدماغ، ولكن بسبب العلاقة القوية التي كانت تربط ابني الخالة بعضهما ببعض فقد باءت كل محاولاتها بالفشل، وفي إحدى الليالي عاد "إيهاب" من عند "ممدوح" الذي يقطن في الجيزة متأخرًا :

– حمد لله على السلامة يا أستاذ.

- الله يسلمك، إنت لسه صاحية؟

- إنت كمان هاتتحكم فيّ وهتنيمني على مزاجك؟

- يا حاجة العفو، أنا بس بسأل.

- سألت عليك العافية يا عين أمك، كلت عند "ممدوح"؟

- أيوه كلت الحمد لله.

- "كلت أيه؟

- أمه كانت عاملة باذنجان مقلي و بطاطس وسلطة .

- "ليه إنت دائماً اللي بتروح عند "ممدوح" و ليه هو مبيجيش زي إنت ما بتروح عنده؟

- عادي، مفيش سبب معين.

- ولا تكون مكسوف لميجبوش أكلي، ده أنا بعمل أكل أحسن من اللي بتعمله أمك.

- أستغفر الله العظيم – طيب إحنا بتكلم على "ممدوح" وأمه إيه اللى دخل أمي في الموضوع، إنتى عايزة أي حاجة تحشري فيها أمي وخلاص؟

– أحشر! هي دي الربابة يا قليل الربابة، إخس عليكو قال تعليم قال، وجامعة يا أخويا إجروا اتنيلو عليكم و على أيامكم السوده، إنت مبحلق في التليفون ولا كأن في حد بيكلمك.

– إنت عايزة إيه دلوقتي؟

– عايزة أعرف بتعمل أيه؟

– حاجات أكبر من سنك.

– الفيسبوك أكبر من سني!! فشر.

– هاااار اسود، انت كمان عرفتي الفيسبوك!

– نعم يا اخويا، ده أنا من يوم ما شرفت عندي وأنا عاملالك هاشتاج #البغل_قاعد_معايا.

– وكمان عرفتي الهاشتاج!

– عرفت الهاشتاج، بقى أنت يا فلاح بتقولي عرفتي الهاشتاج، يا واد ده أنت أخرك تأخد سيلفي مع الجاموسة في بلدكم.

– كده كتير أنا داخل أنام.

– " خش ما هي عربخانة أبوك.

وتنتهي أحداث الليلة ككل ليلة شجار وسب و لعن وصوت عالٍ، ويذهب "إيهاب للنوم الذي يسبقه تفكير عميق، فهو لا يفكر

فيما تفعله "جدتي" ولا فيما تقوله بقدر تفكيره في مستقبله المجهول، فهو مثل أي شاب له أحلامه و طموحاته التي يخشى عليها من الانهيار وأن تكون حطامًا في مهب ريح الزمن العاتية! فدائمًا ما كان يسأل نفسه.. هل سيقف الإنسان عاجزًا أمام آماله و هي تنهار أمام عينيه؟ هل سيظل مكتوف اليدين؟ وكل ما يستطيع فعله هو أن ينظر إليها في حسرة وألم؟ إنه يخشى أن تكون حياته مثل حياة أبيه رغم إيمانه بالقضاء و القدر وبما قسمه له الله، فهو ليس ناقمًا على حياته، ولكنه متطلع وطموح. لا يريد أن تسير حياته رتيبة و مملة مثلها مثل حياة أي رب أسرة طهقان من حياته وزوجته أولاده ومن كل شيء في الدنيا، إنه يريد أن يجعل من حياته جنة ونعيمًا يريد أن يجعل من أولاده في المستقبل ملائكة، لا يريدهم أن يعيشوا مثلما عاش في تفكير دائم في مستقبلهم المجهول – فهو يريد أن يؤمن مستقبلهم بحيث لا يعطيهم فرصة لكي يرهقوا عقولهم في التفكير و تصبح كل طلباتهم مجابة، لا مجال للأحلام و لا يعرف أحد منهم كلمة "نفسي" أبدًا، إنه يفكر دائماً في شريكة حياته التي ستشاركه الحياة الوردية التي رسمها عقله و نبض بها قلبه، يفكر في حبيبته المجهولة مثل مستقبله تماماً، إنه يتمناها إنسانة عصرية متفتحة جميلة على خلق، صوتها منخفض، ممشوقة القوام لا يرى فيها "جدتي"! تحبه و يحبها تشاركه أحلامه و أماله وأحاسيسه، يفكر فيها متعطشة إليه و إلى حبه كتعطش الظمآن للماء أو "البردان" للدفء ووسط هذه الآمال

والأحلام الوردية الجميلة بمستقبله وشريكة حياته إذا بصوت أشبه بصوت الرعد ينخلع قلبه من شدته و يهز كل كيانه ووجدانه إنه صوت "جدتي"

- إطفي النور يا سي "إيهاب". ولا هتنام وهو والع؟ مش كفاية علينا التليفزيون ليل نهار والزفت اللاب توب وشاحن الموبايل والمكواه؟ كمان ناقص النور وحضرتك نايم علشان تكمل.

- أنا واخد على كده.

- واخد على كده! فين يا حبيبى؟! في سراية ببّا، إطفي النور واتمسى

- أتمسى على الكورنيش ها، ها، ها.

- يا دمك اللي يلطش، إيه البرود اللي فيك ده ولا همك ناس نايمة و لا حاجة، على قلبكم مراوح عامل زي بقيت أهل أبوك يعني هتجيبوا من برة، يابأي ع البرود، أنا مشفتش كده في حياتي.

- يا حاجة أنا بهزر معاكى، عارفة أنا عايزك تنسى الدنيا وتفرفشي

- أنسى الدنيا، وأفرفش!! شوف أنا لو حتى نسيت إسمى مش نسيت الدنيا بس مش هنسى العشرين جنيه اللى استلفتها مني أول امبارح.

- حسبي الله ونعم الوكيل، شوف أبقى بكلمها في إيه وهي تقولى ايه، يا ستي هديكي الفلوس أول ما أقبض الحوالة.

- بتحسبن عليا يا "إيهاب"، إخس عليك وعلى البطن اللي شالتك يا ابن...

و تبدأ سلسلة السب واللعن تنهال على المغلوب على آمره "إيهاب".

وفي صباح أحد الأيام يذهب "أحمد" ابن خالة "إيهاب" إلى "جدتي" ليقضى معها يومين قبل أن ينشغل في دوامة الامتحانات:

- السلام عليكم و رحمة الله و بركاته، إزيك يا ست الكل.

- و عليكم السلام، إزيك يا نونوسة عين جدتك عامل، إيه يا واد يا أحمد و إيه أخبار المذاكرة؟

- الحمد لله كويس والعملية ماشية و عال العال. أمال فين "إيهاب"؟

- راح يجيب عيش من الفرن.

- و هو عامل إيه معاكي؟ و إنتي عاملة إيه معاه؟

- أنا من ناحيتي حطاه في نن عيني من جوه مبيطلبش حاجه إلا لما بيلقيها، إنما هو كلب خسيس منه لله.

- ليه بس كده روقي و صلي على النبي.

- عليه الصلاة والسلام، أغرفلك تآكل؟

- لا شكراً، أنا عايز أرتاح شوية ولما أصحى أبقى أفكر في الآكل.

- براحتك يا حبيبي.

و يستلقي "أحمد" على الفراش لينام قليلاً، فهو لم يعجب للفرق الواضح في المعاملة بينه و بين "إيهاب" لأنه يعرف جدته جيدًا ويعرف أنها مؤمنة بالمثل القائل "يا بخت من زار و خفف"، ويعلم جيدًا أنها متأكدة تمام التأكد أن زيارته مهما طالت فلن تكون أكثر من ليلتين أو ثلاثًا. لذا فلم يرهق تفكيره في فرق المعاملة.

و بعد ساعتين ونصف يستيقظ "أحمد" ليجد مشهدًا قد سمع عنه كثيرًا، إن "إيهاب" يجلس أمام التليفزيون في انتباه مقطع النظير أما "جدتي" فهي تنظر إليه شذرًا وتتكلم كلامًا سريعًا بصوت منخفض، ولكن يمكن تمييزه ورغم ذلك فإن "إيهاب" لا يعيرها اهتمامًا فقد تعود على مثل ذلك مرارًا و مرارًا.

- صباح الخير عليكم.

- صباح، صباح إيه يا أبو صباح، إحنا الساعة تمانية المغرب.

- وإنت مالك يا بارد، هو نايم في تكية أبوك؟

– يا ست إنت إيه اللي مزعلك أنا وأحمد أخوات.

– وله، اتلم لحسن و رسول الله أديك على وشك بالكوباية.

– خلاص يا حاجة بس يا "إيهاب" دي مهما كانت جدتك.

– هو ده يعرف الأدب، يا أخويا غوره ولا نيله بعيد المهم أجيبلك تاكل؟

– و الجميل عامل أكل ايه؟

– عاملة فول من الشارع.

– معلش يا عم "إيهاب" خللي المحمر و المشمر لأبوك وأمك بص يا سيدى هابعت البغل ده يجيبلك كباب و كفتة ضاني من الكبابجي قلت إيه؟

– إشمعنى هو كباب وكفتة وأنا مش معبراني وكل يوم يا طبيخ بيتي يا فول من عم السيد؟

– كده، وانت مالك؟ ما أنت لسه طافح فراخ إمبارح، قال اشمعنى! ياباي على البجاحة.

– لا شكرًا يا "جدتى" أنا هاكل اللي موجود هنا علشان عايز أخد الواد إيهاب و نتمشى شوية لحسن حاسس إنى مخنوق حبتين.

– سلامتك يا حبيبتي مالك يا عين جدتك.

- مفيش بس عايز أتمشى شوية مع هوبة.

- مش لاقي إلا زفوتة!

- إنت فاكرة إيه، إحنا شوية في البلد الواد هيموت عليّ جاي من آخر الدنيا علشان يتمشى معايا.

- عاجبك! أديك خليت بغل زي ده يفتح بقه و ويشم نفسه عليا.

- يا ستى خليها علينا المرة دي.

و يأكل أحمد سريعاً ثم يشرب الشاي وبعدها يلبس و يخرج وبصحبته "إيهاب" للتمشية.

- هنروح على فين يا أبو حميد.

- أي حتة و السلام. بس تكون هاديه و ميكونش فيها ناس.

- ياه إنت باين عليك مخنوق قوي.

- قوي، قوي، قوي.

- يا ساتر يا رب في إيه؟

- تعالى، بس الظاهر إن كوبرى 6 أكتوبر فيه إصلاحات لأنه مقفول

– كويس، تعالى نتمشى عليه وأكيد هيبقى فاضي، جتلك على الطبطاب مش إنت مش عايز ناس، استلم.

– بص يا هوبة الكلام اللي هاقولة، مش عايز أي مخلوق يعرفه مهما كان! فهمت.

– عيب سرك في بير يا صاحبي.

– طبعاً إنت عارف ريهام؟

– آه، طبعًا عارفها.

– هتتخطب.

– مبروك! إيه هتت، إيه، امتى ؟ لمين؟ إزاي؟

– زي ما بقولك كده، هتتخطب لــ"حسين".

– "حسين"؟ "حسين" مين؟

– "حسين السيد".

– صاحبك اللي ساكن جانبك.

– أيوه اللي ساكن جنبي.

– وهي وافقت؟

– للأسف.

- اعذرني.. دي محبتكش.

- ليه ماتقولش إن أنا السبب؟!

- السبب؟ في إيه؟ و إزاي؟

- يا "إيهاب" الحب مش كلام و بس، الحب أفعال أكثر منه أقوال، و البنت شايفة إني بقالي 3 سنوات و معملتش فيهم أي حاجة.

- بس انت لسه بتدرس و مش متوقع منك أي حاجة.

- ما هو علشان كده فضلت علي اللي يقدر إنه يعمل حاجه و برضه هيديها الحب، يعني هيفرق عنى نقطة.

- مش بقولك محبتكش؟ الحب يعني تضحية، يعني عطاء بلا حدود من غير انتظار رد أو شكر الحب يعني....

- بس كفاية متقولش أي حاجه تانية، و متحاولش إنك تعيب فيها

- إنت لسه بتحبها؟

- ومش هانساها.

- لغاية إمتى؟

- لغاية لما ربنا يأذن.

- حرام عليك نفسك.

- قاتل الله الحب!!

و يمر الوقت سريعًا و يدور النقاش في أكثر من موضوع وفجأة يسأل أحمد:

- الساعة تجيلها كام دلوقتي يا هوبة؟

- يا نهار إسود: الساعة 4:30 الفجر.

- يا لهوي زمان جدتك قلبت الدنيا علينا.

- إتفرج يا باشا على اللي هيجري لنا، الدنيا هتولع نار نار نار نار، الحاجة هتولعها نار.

- يا آخي اتلم، ده وقت غنا.

- هنعمل إيه يعني، خلاص يا روح ما بعدك روح.

- طب يلا نرجع

- إنت عارف إحنا فين.

- أيوه عند منزل "العجوزة".

- يعني مش أقل من ساعة على مانرجع.

و يعود "أحمد" و"إيهاب" بعد أن يكونا قد صليا الفجر وأحضرا معهما الفطور.

- خبط.

- يا عم أنا مالي، خبط إنت مش بتقول إنها بتحبك.

- خلص يا إيهاب مش وقت دلع.

- لو سمحت ده مش دلع، ده خوف.

- يا جبان.

ويطرق أحمد الباب.

- مين؟

- افتحي يا حاجة إحنا بوليس.

- يا ولاد الـــ...

و تنهال عليهما بوابل من الشتائم و اللعنات وهى تفتح الباب.

- اسمعي هانقولك.

- إخرس.

- طب حتة طعمية سخنة.

- إلهى يسخنوك في نار جهنم يا ابن ليلى.

- عيش مولع و مقرمش في الآخرة.

- اللهى تولع و تقرمش في الآخرة.

– أحسن هيفوتك الفطار الملوكى المعتبر.

و يبدأ الاثنان "أحمد" و"إيهاب" في استفزاز جدهما حتى تضحك ويفطرون جميعًا، ثم يغلبهم النعاس جميعًا.

* الساعة الرابعة عصر نفس اليوم:

– ياللا يا هوات الساعة بقت أربعة العصر، ياللا علشان تلحقوا تصلوا الظهر قبل العصر ما يأذن.

– حاضر قايمين أهوه، قومي "إيهاب" الأول.

– يا عم إنت مالك بزفت، متقوم إنت، أنا مش قايم دلوقت.

– ليه على رأس أمك ريشة.

– شوفي يا "جدتى" إنتي خليتيني كرهت أمي و أبويا و نفسي وكرهت الواد اللي جنبي ده.

– وطبعاً كرهتني يعني إشمعنى أنا اللي مش هاتكرهني، شكرًا يا سيدى، أدي آخرة اللي يعمل خير في الزمن الأغبر ده، خيرن تعمل شرن تلقى، ماشى.

– لا حول ولا قوة إلا بالله أنا جيت جنبك ولا قلتلك حاجة هى تلاكيك و السلام

– آه صحيح يا حاجة إيه اللي حصل علشان كل ده.

– يا سلام يا عم "أحمد" بتدافع له قوي كده ليه يعني هو سعادتك عينوك محامي لساعدته.

– لا محامي ولا حاجة، بس أنا مش شايف داعي للي حصل.

– قصدك إيه أنا مجنونة و لا مجنونة

– يا عم "أحمد" سيبك منها و تعالى نقعد في أوضة خالك

– ياللا يا خويا ما المثل بيقول: "مالك يا فرعون مين فرعنك قال ملقتش اللي يلمني" مش "أحمد" بيه شرف اتمرع علينا براحتك.

* في غرفة خالي:

– روق يا هوبة و افرد وشك.

(صمت)

– إيه يا "إيهاب" مالك سرحان في إيه، بتفكر في إيه مجراش حاجة لكل ده.

– عارف أنا بفكر في إيه؟

– في إيه؟

– بفكر ازاي اتخلص من الست دي، أأجر عليها عيال صيع يموتوها بس حرام العيال يخشو السجن فيها، ولا إيه رأيك أفتح الأنبوبة عليها بس برضه حرام إحنا لسه مالينها بـــ ٣٠جنيه.

- بس بس إيه مالك إيه اللي إنت بتفكر فيه ده إعقل و بلاش هبل.

- أعمل ايه ما هي جننتني.

وفجأة تصرخ "جدتي":

- إيهاااااب، يا بيه، إنت يا زفت الطين.

- إتفرج يا عم صوقا! نعم.

- تعالى عايزاك.

- حاضر، تعالى معايا متسيبنيش لوحدي.

- اتفضل لم هدومك، واتكل على الله، بصراحة أنا ست كبيرة ومش حمل إن أخدم شحط زيك، ده أنا عايزة اللى يخدمني، كمان أنا مش حمل مسئولية واحد بايظ و صايع زى حضرتك.

- يا "جدتى" إيهاب معملش حاجة لده كله.

- إسكت أنت لو سمحت، إتفضل يللا لم هدومك.

- حاضر.

يلملم إيهاب حاجاته و يعبئها في حقيبته.

- هاتروح فين يا "إيهاب"؟

- أنا عارف أي حتى و السلام.

- إيه أي حته دى ياللا بينا على البيت.

- ياللا.

و يمضيان معًا إلى بيت "أحمد" أو بمعنى أدق بيت خالة "إيهاب".

و هنا تنتهي قصة "جدتي" و لكن لا تنتهي مواقفها الكثيرة والعديدة، إن مواقفها مزيج من حياة الشباب المفقودة والأمومة العقيمة والشيخوخة الدائمة. إن "جدتي" ترى في أختي الصغرى طفولتها، وفي الكبرى شبابها وجنونها وترى في أمي مرحلة الأمومة التي عاشتها مع أبنائها، وفي النهاية تجلس وحيدة مع شيخوختها. إن "جدتي" جعلت أحلامي في الحياة تزيد حلمًا آخر، ألّا أصل إلى سن الشيخوخة، أو سن العجز، إن حلمي في الحياة الآن ألّا أصاب بمرض الزمن، حقيقة لا أريد أن يأتي عليّ يوم ويكتب عني قصة يكون عنونها.. "جدي"!



سبعٌ عِجاف



كان يومًا لا يُنسى.. بل ربما هو اليوم الوحيد في حياتي الذي جمع كل تناقضات الأحاسيس والمشاعر ..يومًا حمل بين طياته الخير والشر معًا.. لم أعرف طعم الفرح والسعادة قبل هذا اليوم.. ولم أكْرَهْ من أيام حياتي إلا ذلك اليوم! أول "خروجة" مع حبيبة العمر بعد أن ارتدت "دبلة" الخطوبة.. كَمْ عِشنا نحلم بهذا اليوم! منذ سنوات طوال كان طلبها أن يكون أول غداء بعد الخطوبة في مطعم "عم بيومي الإسكندراني" في بحري.. تربطنا ذكرياتٌ ممتعة في ذلك المكان منذ الصِّغر.. ولكن ثمة شيئًا مُخيفًا كان يعبث بعقلي طوال اليوم.. وفي رحلة العودة من الإسكندرية إلى القاهرة ..وفي خِضم كل مشاعر السعادة.. كان للقدر رأي آخر!

لم تترك لنا الدنيا سوى بضع ساعاتٍ نهارية لنفرح قبل أن تُباغتِنا بما كانت تُخفيه.. وقبل مدخل مدينة السادات ببضعة كيلومترات.. كان في الكتاب مصيرٌ يختلف عمًّا خططته مع حبيبة العمر.. ليسطر

القدر خَطًّا آخر مُعاكِسًا لأحلام الصِّبا.. انحرفت عجلة القيادة من تحت يد فريدة لتصدم شابًّا عشرينيًّا يعبر الطريق ليسقط قتيلًا في الحال.. دماء منتشرة على كل جوانب السيارة.. وزجاج مُحطَّم.. وشابٌّ قتيل.. وحالة من الانهيار تعتري حبيبة العمر التي ضاعت حياتُها وحياتي معها.. قبل أن تحضر الشرطة كنتُ أنا الجالس على مقعد القيادة وفريدة بجانبي تبكي.. كابوس مخيف، وأحلام مُتبدِّدة، وغيبوبة قاتلة أفقتُ منها على صوت رجل أجش يتوسط رجلين جميعهم اتَّشحوا بالسواد العادل..

"حكمت المحكمة حُضوريًّا على المتهم سليم إبراهيم عبد الشكور بالسجن سبع سنوات مع الشغل ..."

سبع سنوات قضاها بين جدرانٍ أربعة كتبَ عليها بالحبر الأسود قصة حُبِّه لفريدة.. تلك الفتاة المشاكسة التي أحبَّها منذ الطفولة.. حكى لجدرانه الأربعة عن ضفيرتيها وغمازتيِ خديها.. قَصَّ عليهنَّ بحَّة صوتها التي ميزتها بين كل أقرانها.. والدها رجل عسكري حاد الطباع، أربعون عامًا قضاها في الخدمة العسكرية حتى اكتست كتفاه بالنجوم والنسر والسيفين.. لواء مُتقاعِد يُطبِّق الأحكام العسكرية على أفراد أسرته إن خرجت عن حدود الانضباط.. ثلاثة أشهر قضاها سليم في بروفات تحضيرية ليوم اللقاء.. ذاكَرَ التاريخ العسكري منذ حُكمِ محمد علي حتى الضربة الجوية ثم رَفْع العلم في

سيناء واستقلال طابا.. حَفِظَ كل الأناشيد الوطنية.. حَفِظَ تاريخ ثورة يوليو عن ظهر قلب حتى لا تكاد تُفرِّق بينه وبين" علي" ابن الجنايني في فيلم "رد قلبي"... سبع سنوات مرت كسبعين خريفًا .. زارته فريدة فيها ثلاث مرات خلال عامين قبل أن تنقطع زيارتها تمامًا ليعلم بعد شهرين كاملين من انقطاعها أنها أذعنت لمحاولات والديها وتمت خطبتها، ليسطر القدر منعطفًا جديدًا من الآلام والمعاناة.. سنوات مرت ثقيلة لم يكن يرغب في مقابلة أحد.. حتى جاءه خطاب منها تخبره أنها تزوجت، ولكنه لا يزال حيًّا بداخلها.. شرحت له معاناتها مع والديها ومرض أمِّها بسبب رفضها الزواج ..

حكت له عن عذريتها التي لم تُفقد وكيف أن ما تعيشه ليس سوى زواج مع وقف التنفيذ بعد أن حكت لذلك الرجل قصتها وتضحية حبيبها بمستقبله من أجلها ..حكت له في خطاب طويل عن سجن تحيا فيه بلا قضبان.. حكت له عن سنوات عِجافٍ تعيشها بلا أملٍ سوى أن تكمل حياتها معه..

مرت الأيام ثقيلة عليه خلت من كل وسائل الاتصال بها.. كان يسأل عنها كل مَن يزوره فلا يروي ظمأ سؤاله أحد ..بيد أنه كان يشعر أن ثمة شيئًا خفيًّا وراء ذلك الضباب .. سرعان ما تبدلت حيرته ألمًا حين علم بنبأ وفاة والديها وطلاقها ووحدتها التي تعيش فيها .. ولكن كل هذا لا يمنعها من أن تكون بجانبه في محنته.. حيرة وألم

وغصة ووجع وحب وشوق، كلها مشاعر متضاربة عصفت به في محبسه.. وهكذا مرت الأيام ثقيلة ..الليل مثل النهار.. كل الأيام سواء.. حتى اكتملت مدة عقوبته ليخرج إلى دنيا كره كل ما فيها إلا محبوبته فريدة.. خرج يبحث عنها وعن نفسه التي ضاعت معها.. يريد أن يطوي معاناة سبع سنوات من القهر والذل والظلم.. ألف وثمانمائة وتسعون يومًا حصيلة بعده عن نَفَس من يحب.. وما أصعب ذلك البعد ..بعد بنكهة العجز!

فتّش عنها في كل مكان حتى عَلِمَ أنها تقيم في بيت صغير قرب مدينة الشروق في شمال شرق القاهرة.. قرَّر أن يذهب إليها يخبرها أنه عاد للحياة من جديد وأنها عادت معه.. قرر أن يُحييَ الحب الذي صار رميمًا..

قرَّر أن يمحو تلك السبع السوداء، وأن يستأنف حياته دون النظر لتلك السنوات العجاف.. ذهب إلى عنوان كان قد كَتَبَه في ورقة صغيرة بعد أن سأل أفراد الأمن المنتشرين في المنطقة وكذا عمال التشطيبات المتناثرين بكثرة.. طَرَقَ الباب ففتحت فتاةٌ صغيرة لم يتجاوز عمرُها العشرين عامًا.. سألها عن فريدة وأعطاها الخطاب الوحيد الذي كتبته له بخطّ يدها وقت أن كان في السجن بعد أن كتب على ظهره بيده: "خرجتُ من السجن ولكني لم أرَ النور بعد.. سأظلُّ حبيسًا إلى أن نتعانق.. حبيبك سليم".. دقيقتان مرتا دهرًا

بأسره.. قلبه كان ينتفض، كان يشعر أنه سيخرج من جسده.. ثم انفتح الباب مرة أخرى.. شعر أن دقات قلبه يسمعها كل سكان المنطقة.. أطلت من خلف الباب الفتاةُ نفسُها التي فتحت له لتخبره أن فريدة تعتذر عن عدم المقابلة ..صدمة ألّمت به أفقدته توازنه بعض الشيء.. وقبل أن يهمَّ بسؤال الفتاة عن السبب كانت قد أغلقت الباب في هدوء.. ومعه أغلقت كل أبواب الأمل أمام عينيه..

لم يكن يعلمْ أين سيذهب، ولا إلى أين ستقوده قدماه.. بل إن قدميه كانتا تسيران بلا وعي.. لم يعرف كم من الوقت مضى في السير حتى وجد نفسه في حَيِّه القديم ..ذهب إلى بيت أقرب أصدقائه.. قَصَّ عليه ما حدث والدموع تنهمر على وجنتيه، ثم استدار وسأل صديقه في هدوء:

- تُرى، أهي التي اعتادت الرحيل؟ أم أنني أنا الذي اعتاد العزلة؟!

لم يُمهِلْه وقتًا للرد على سؤاله، حين باغته..

- هل تعرف ما هما ألد أعداء الحب؟

وقبل أن يرد صديقه..

قال: الكبرياء والصمت!

ثم هبَّ واقفًا من مقعده واتَّجه نحو باب الشقة، وخرج وأغلق الباب خلفه!

هرول إليه صديقه وقال: اسمع يا سليم.. إن كنتَ حقًّا تؤمن أن ألد أعداء الحب هما الكبرياء والصمت فعليك أن تقتلهما، واذهب إليها وتحدَّث معها مهما يكلفك الأمر..

كلماتُ صديقه أَحْيَتْ فيه الأملَ من جديد.. في اليوم التالي قرَّر الذهاب مرة أخرى لبيت فريدة.. ليجد الفتاة العشرينية نفسها تفتح الباب على مصراعيه في هذه المرة وتطلب منه الدخول.. دقائق وجاءت له بخطاب.. بخطى رتيبة فتحه:

"حبيبي سليم كنتُ أتمنى أن أكون أول الواقفين في انتظارك.. كنتُ أعدُّ الأيام والساعات منتظرةً ذلك اليوم.. ولكن القدر كان له رأي آخر.. قبل عامين علمتُ بنبأ إصابتي بالسرطان، وفي العام نفسه مات والدايَّ وطلقني زوجي – الذي لم يكن زوجي يومًا! كانت حالتي تتدهور يومًا تلو الآخر بشكل ملحوظ.. بِعتُ شقة والدي واشتريتُ تلك الشقة التي تجلس فيها، واستأجرتُ ممرضة تمرضني في بيتي.. لم أكن أرغب في الموت بعيدًا عن فراشي.. يوم إن جئتَ إليَّ كنتُ أمام خيارين لا ثالث لهما؛ إما أن أُذعنَ لشوقي وأرتمي بين ذراعيك وأنا في تلك الحالة المتردية لأضيف إلى سلسلة همومك همًّا آخر لا يقلُّ ألمًا عما عشتُه طوال سنوات السجن أو أن أقاوم كل هذا

لتعيش حياتك في سلام نسبي دون معاناة جديدة خاصةً أني كنتُ أستشعرُ قُرب الأجل.. وكونك تقرأ هذه السطور الآن فهذا دليل على صدق ما كنتُ أشعر به.. الأجل قصير يا حبيب العمر.. لقد عشتَ معاناةً طويلةً لأجل حريتي ...وكان لزامًا عليَّ أن أردَّ لك شيئًا من الجميل ولو بالبُعد عنك لتحيا حياةً خالية من المعاناة.. أُحبُّك يا سليم.."

طوى الخطاب وأجهش في البكاء.. دخل حجرتها وقبَّل سريرها، جثا على ركبتيه يُقبِّل ملابسها التي تحمل رائحتها.. لحظات وسكن البكاء، وجفَّت الدموع، وصمت العالَمُ من حوله.. تركَ الدنيا لأجلها.. رحلتْ روحه لروحها.. قرَّر أن يُعانقها في السماء فالأرض قد اكتظت بالآلام.. هناك ستكون الحياة أهدأ.. في السماء حياة بلا قضبان ولا قيود.. في بيتها أراد أن يُنهي القدر حياة رافقها الوجعُ منذ لحظة ميلاد السعادة.. حياة عمرها سبع سنواتٍ عِجاف!



نور



نور فتاة راقية.. مُجتهدة.. تتمتع بجمال خلاب.. متعلمة ومثقفة، مُحبِّة للقراءة بشغف، مُطَّلعة على أخبار العالم بشكل يثير العجب.. نور فتاة في أوائل الثلاثينيات، أنهتْ دراستها في كلية الآداب قسم اللغة الإنجليزية، وعملت في مجال التدريس.. هي الأخت الصغرى وسط ثلاثة أبناء أكبرهم محمد يعمل مهندسًا في فرانكفورت وحسين ويعمل طبيبًا في الإمارات.. تعيش نور مع أمها في البيت نفسه الذي نشأت فيه.. نور يتيمة الأب بعد صراع مع مرض فيروس سي دام سنواتٍ.. أتمت نور عامها الثامن والعشرين دون زواج.. لا شيء يعيبها على الإطلاق، إلا أن المجتمعات العربية أو الشرقية وجدتْ فيما خلقت به عيبًا.. نور فتاة فاقدة للبصر ولكنها تتمتع بالبصيرة.. كانت ترى الأشياء من حولها بضعف بصري حتى سن الرابعة عشرة قبل أن تُصاب بكفٍّ بصري كامل.. لم تعقْها إعاقتُها – إن استسلمنا

لوصف المجتمع لها بالإعاقة – عن ممارسة حياتها.. نجحت وتفوقت، بل كانت مثار إعجاب من حولها لتناسُق ملبسها.. ككل الفتيات كانت نور تحلم بفارس أحلامها.. ذلك الرجل الشرقي الوسيم الغيور الكريم المعطاء الحنون، كانت تتمنى رجلًا في حياتها يرفع عن كاهلها سخافات المجتمع التي لا تنتهي.. نور لا تسير بعصا المكفوفين ولا يمسك بيدها أحد.. ترتدي نظارة شمس على الطراز الحديث.. لا تسير ليلًا فهي تعرف حدود قدراتها جيدًا، ولا تحب أن يقودها أحد.. لذا فمن الصعب أن يعرف الغريب أنها كفيفة! بارعة في إتقان الأشياء التي تتعلمها.. إلا أن المجتمع لا يرحم، كانت في مدرستها حين تعدُّ قهوتها بنفسها يتجمَّع كل المدرسون وكثير من الطلبة ليروا بأعينهم هذا المخلوق العجيب الذي يصنع قهوته دون أن يرى! في عيد ميلادها التاسع والعشرين أهداها محمد – الأخ الأكبر – هاتفًا ذكيًّا ناطقًا صُنع لفاقدي البصر خاصةً.. يحمل كل التقنيات الحديثة ويساعد بشكل عجيب على التعرف إلى الآخرين والتواصل معهم عبر مواقع التواصل الاجتماعي.. كثيرًا ما واجهت أسئلة من نوع "من الذي يكتب لك؟" "كيف علقتِ على هذا المنشور؟" "أأنتِ صاحبة هذا الحساب أم أنه تشابُه أسماء؟" وأسئلة كثيرة من هذا النوع.. منذ ثلاثة أعوام مضت عاشت نور قصة حبٍّ راقية مع شاب يحمل كل صفات الرجولة والوفاء، ولولا ضعفه واستكانته لراهنت على ملائكيته.. عادل شاب يكبر نور بعامين اثنين فقط، يعمل

صيدلانيًّا في صيدلية الحي الذي تسكن فيه نور.. أحبَّها بكل تفاصيلها، وهي لم تبخل عليه بكل مشاعرها، كانت ترى فيه الأب المفقود، والأخ المسافر، والحبيب المنتظر، والصديق الوفي.. عادل رجل يحمل كل الصفات التي تتمناها كل الفتيات.. ذو بنيان متناسق، وبشرة قمحاوية، صوته مُفعَم بالحنان، كثير الاهتمام بأدق التفاصيل، يحب نور بمشتملاتها، بقراءتها، واطلاعها، وأمِّها، وكفِّ بصرها.. يحبها بمعتقداتها في المجتمع المريض الذي تعيش فيه.. كان كثيرًا ما يُهوِّن عليها بكلماته الرقراقة، ولكن لأن عادل وأهله جزء من هذا المجتمع المريض؛ فقد رفض أهله فكرة الزواج بفتاة كفيفة، بل هددوه بمقاطعته إذا ما استمر في حبه لهذه الفتاة.. الأمر الذي دفعه لترك الصيدلية التي يعمل بها، وترك الحي كاملًا، وتغيير رقم هاتفه، والاختفاء التام من حياة نور..

ثلاثة أعوام كاملة فقدت فيها الثقة في المجتمع بأسره.. فلم تكن تسمح لأحد بالاقتراب منها.. يمر عامٌ تلو الآخر وهي تبحث عن عادل في كل مكان، لم تستطع أن تكرهه بكل ضعفه بل كانت تلتمس له الأعذار.. تقدَّم لخطبتها الكثير من الرجال أغلبهم مصابون بكفِّ البصر، ومنهم من أرادها زوجة ثانية، ومنهم الأرمل الذي رأى فيها الصلاح لتربية أولاده، ولكنها كانت تنتظر عادل.. كانت على يقين أن الله سيعيده إليها.. وفي يوم الاحتفال السنوي بالمدرسة كانت نور مسؤولة عن فريق التمثيل بمسرح المدرسة، وكان أداء الطلبة

بارعًا في المسرحية، وأثنى الجميع على دورها القيادي، وبعد انتهاء العرض فوجئت نور بشاب يُدعى مصطفى يعمل صحفيًّا في إحدى الصحف المشهورة، وطلب منها أن يُجري معها تحقيقًا صحفيًّا حول حياتها وتحديها للصعاب.. وكان الحوار على أكثر من جلسة، وتطرَّق مصطفى إلى حياتها الشخصية، وبدأ يسأل عن الحب في حياتها.. لم تجد غضاضة في الحديث معه عن حبها الأوحد عادل، فأسهبت في الحديث عنه.. الأمر الذي دفع مصطفى للسؤال عن أدق التفاصيل في صفات عادل، حتى نبرة صوته وعطره؛ ولأنها كانت تحفظه عن ظهر قلب فقط استطاعت نور أن ترسم صورة حية لعادل كما رأته بقلبها وعقلها.. خمس جلسات كانت كفيلة بتسطير حياة نور منذ أن نشأت إلى يومها هذا.. كانت تشعر مع مصطفى براحة غريبة، حتى أنها لم تستطع إخفاء حزنها حين علمت بانتهاء جلسات الحوار الصحفي معه.. وفي اليوم الأخير ودَّعها مصطفى، ووعدها أن يهديها نسخة من الجريدة فور إصدار التحقيق، ولكنه اختفى!

ستة أشهر كاملة لم تعرف عنه شيئًا.. أصابها شيء من الحزن ممزوج بالغضب؛ لأنها فتحت الباب لمشاعرها مع مصطفى.. نعم لم تتحدث معه إلا عن عادل، ولكنها منَّت نفسها بحبٍّ وهمي، كثيرًا ما نعتت نفسها بالغبية! بعد ستة أشهر كاملة من إجراء الحوار حدثَ ما لم تتوقعه.. لقد عاد! لم يكن مصطفى هو الذي عاد، بل عادل عاد مرة أخرى يحمل حنين السنين، واهتمامًا فاق كل الحدود، عاد بحبٍّ يكفي ويفيض، لم تنتظر أن يتكلم حتى تعلم بعودته، فقد عرفته من

عطره الذي لم يفارق مخيلتها.. انهال عليها بعبارات الاعتذار، وطلب منها أن تسامحه، وطلب تحديد موعد للزفاف.. سافر إلى لندن، وأحضرَ لها فستان زفافها، كانت فَرِحَةً بعودته، ولكن ثمة شيئًا خفيًّا كانت تشعر به، وكانت تخاف من ذلك الشيء.. شيء كان كفيلًا بتعكير صفو اللحظات الرائعة مع عادل.. كانت تقاوم رغبتها في الوصول لمصطفى وتنهر تلك الرغبة بداخلها.. كثيرًا ما كانت تسمع صوت مصطفى في نبرة عادل، الأمر الذي أشعرَها بالخيانة، بل زادها سخطًا على نفسها، وأحسَّت أنها إذا ما تمادت في ذلك الشعور سينتقم منها الله مرة أخرى، وسيأخذ عادل من حياتها إلى الأبد..

وجاء يوم الزفاف واجتمع كل الحاضرون من أهل وأقارب.. كانت تخشى أهله كثيرًا.. سيناريو المرة السابقة يُعاد في مخيلتها آلاف المرات.. وفجأة علت الزغاريد، فعلمت بقدوم عادل وأهله.. ودخل عادل الغرفة عليها.. وطلب من الحاضرات تركهما بمفردهما.. دقات قلبها كانت في سباق مع أنفاسها.. كانت تشعر أنها لن تتمكن من سماع كلماته من فرط صوت نبضها العالي.. ثم أردف عادل قائلًا:

"حبيبتي، أعلمُ أن ما سأقوله الآن ربما يكون صدمة لك، لكن لن أستطيع أن أخفي ما بداخلي كثيرًا.. لا مجال لمقدمات كل حرفٍ فيها يقتل، وأعرف أنك بتِّ أضعف من تحمُّل أي صدمة في حياتك.. لذا أردتُ أن أخبرك الحقيقة.."

كانت الكلمات تمرُّ على مسامع نور كالدهر، في كل حرف تترجى الحقيقة، تريدُ أن تعيش حياة الأسوياء دون ألم.. عادل مُحقٌّ؛ فهي لن تستطع ان تتحمل أي صدمة..

ثم أردف عادل: "الحقيقة يا نور أنني لا أحبُّك مثلما كان عادل يحبك، بل أنني أحبك أكثر منه آلاف المرات.. ستة أشهر كاملة بحثت عنه في كل مكان حتى وجدته، كنتُ أُسجِّل معه حواراتٍ وهمية لأحمل صوته وأحاول أن أحاكيه.. ستة أشهر أُقلّد سكتاته قبل كلماته، طريقة جلسته ومشيته، كنتُ أحاولُ أن أُحاكي تنهيداته وطريقة تنفُّسه.. عطره ولزمته في الكلام.. كل ذلك تعلمته وأتقنتُه حين لمست مدى حُبِّك له.. كنتُ أقاوم دموعي وأنتِ تحكين عنه.. لا أعرفُ كيف أحببتُك هكذا! ولكن آن الأوان أن تُكشف الحقائق اليوم.. أنا مصطفى وليس عادل.. أحبُّك يا نور، وأتمنَّاك زوجة لي وأمًّا لأولادي.."

هبَّت نور من مقعدها والدموع تملؤها.. واحتضنتْهُ وقالت: "الحمد لله أنك مصطفى ولستَ أحدًا غيره!"

خواطر #عنه و_عنها



إهداء

إلى كل #عنه_و_عنها..

إلى كل من امتلك إحساسًا صادقًا..

إلى من ملكت قلب #عنه وسيطرت على كل ملكات تفكيره..

إلى من استعمرت قلب #عنه..

إلى من سرقت النوم من عين #عنه..

إليكِ يا أجمل #عنها في الوجود..



كل حواراته كانت #عنها، أما هي فما استحت أن تتحدث #عنه في جموع الناس وبين أقرانها، كانت بطلة حواره الرباني في السجود، ولم تذكر سواه مع ربها..

#عنه_و_عنها

***

ربما تمنَّى كثيرًا أن يفتح عينيه ليجد نَفْسَهُ ذلك الطفل الصغير، ملائكي الملامح، الساكن حجر أمه، في ذلك البيت البسيط المطل على المسجد، منتظرًا عودة أبيه ليتناول معه الطعام، ثم يأوي إلى فراشه خالي البال، عالمٌ ثريٌ بالأحلام؛ طفوليٌّ المعالم، لا فيه دنس البشر ولا ضجيج المدنية..

#عنه_و_عنها

***

شعرت بحنين لأيام قضتها بين ذراعيه، ألم الفراق يعتصرها، غصة في قلبها كلما مرّ عليها اسمه، قررت أن تكتب له رسالة، أحضرت قلمًا وورقة بيضاء، أناملها ترتعش كأوراق خريفية، كتبت كل ما تشعر به، أفرغت ما بداخلها، أمسكت بالورقة تقرأ ما خطّته يدها، انهمرت من عينيها الدموع حتى بللت الورقة، بأنامل متشنجة

كرمشت الرسالة، ضغطت عليها بقوة كأنها تزهق فيها الروح، مزقتها ألف قطعة ثم جعلت مثواها الأخير إلى سلة المهملات، مسحت دموعها بيدها وأطفأت النور، ألقت بجسدها على الفراش وراحت في سبات عميق..

#عنه_و_عنها

***

طلب منها أَن تنتظره، ونسي أن يعود..

#عنه_و_عنها

***

بدت كعصفورة منهكة من عناء التحليق في الفضاء، كانت تبحث عن شجرة لتنام عليها، وكان هو أقرب غصن لها..

#عنه_و_عنها

***

تذكرت أول لقاء جمع بينها وبين زهوره البيضاء التي أهداها لها، وابتسامة الفرح التي هربت من بين شفتيها، يومها أخفت وجهها بين الزهور في خجل، نظرت إلى المزهرية الفارغة وتمنت زهرة بيضاء تعيد الابتسامة إلى شفتيها..

#عنه_و_عنها

***

برغم كل الهدايا التي تلقّاها طيلة حياته، فإن تلك الورقة الصغيرة التي تحمل حروفا خطتها بيدها في أول لقاء جمع بينهما سيظل لها رونق خاص، فهي تحمل بين ثناياها عبق ذلك اليوم..

#عنه_و_عنها

***

أعدت قهوتها وجلست تتناولها في شرفة منزلها، أنهت فنجانها وظلت تنظر إلى فنجانه الممتلئ الذي اعتادت أن تعده له رغم غيابه، منتظرة ذلك اليوم الذي سيأتي فيه ويشاركها تلك الجلسة..

#عنه_و_عنها

***

في تفاصيله كانت تكمن سعادتها، لم تمل حديثه معها أبدا، بل ربما وجدت بين مفرداته نقطة التقائهما، لم تكن تفكر كثيرا وهي تتكلم معه، فالحديثُ معه كان حديثُ الرّوْحِ للرّوْحِ..

#عنه_و_عنها

***

أشعل سيجارته ووقف ينفث دخانها في شرفة منزله وهو يتابع صورة جمعت بينهما يومًا في أحد الأماكن العامة، ابتسامةٌ حزينةٌ هربت من بين شفتيه صاحبتها دموعٌ ساخنة تسلّلت على وجنتيه وهو يتذكر صيحاتها وهي تقول: "مبحبش أتصور، مبحبش أتصور"، ثم

تقف مُستسلمة لإحدى يديه وهي تُحيط بخصرها والثانية تُمسك بالكاميرا..

#عنه_و_عنها

***

في طريق العودة إلى المنزل أدارت زر المذياع لتأتي موسيقى إحدى أغنيات أم كلثوم، أخذت تدقُّ بأظافرها على عجلة القيادة وتتمايل برأسها طربًا مع الموسيقى حتى جاء صوت الست "إنت خلتني أعيش الحب ويّاك ألف حب، كل نظرة إليك بحبك آآه بحبك، بحبك من جديد، من جديد وأفضل أحب..". بكت كما لم تبكي من قبل، فيومًا ما أَهْدَى لها ذلك المقطع، أغلقت المذياع وفتحت نوافذ السيارة واستسلمت لهواء ديسمبر البارد..

#عنه_و_عنها

***

هكذا تمنّته،"رَجُلًا"، أمنية مجردة من كل الصفات، فبين ثلاثة أحرف تسكن كل القيم، وتتجلى آيات المودة والرحمة، وتترسخ مبادئُ الاحترام، وتزهر الحياة بالحب.

#عنه_و_عنها

***

في إطلالتها نورٌ كنورِ الشمس، نورٌ يُضيء ولا يُحرق، أما عيناها ففيهما سحرٌ ينقلك من عالمٍ إلى آخر وأنت ساكنٌ في مكانك، عذبةٌ

هي في كل شيء؛ وكأنه حين مُرج البحرين غُمِست في العذب الفرات، فصار كلامها عذب، وصمتها عذب، حتى غضبُها صار عذبًا..

#عنه_و_عنها

***

في جو يسيطر عليه الهدوء إلا من صوت موسيقى خافتة ينبعث من أحد أركان المكان، وفي أحد المطاعم العائمة على نيل القاهرة، كان جالسًا أمامها، ينظر في عينيها، من فرط خجلها تركت من يدها الشوكة والسكين ونظرت إلى صحن الطعام في محاولة لإخفاء ما في عينيها، فهبّ واقفًا من جلسته وعدَّل من هندامه في حركة تمثيلية وكأنّه سيُلقي خطبة، وقالَ: إحم إحم، أمَّا بعدُ، فقاطعته بصوت خفيض قائلة: ألا يُمكن أن تبدأ أولًا بـــأمَّا قبلُ؟ فقال: كما تحبين، أمَّا قبلُ، فلم أعرف الحب قبلك، ابتسمت في خجل وقالت: إذن أكمل، تنحنح ثانية وقال: أمَّا بعدُ، قاطعته مرة ثانية وقالت، معذرة، ألا يمكن أن تخبرني بـــ "أمَّا الآن" قبل أن تُردف، ضحك من قلبه وقال: أمرك مولاتي، أمَّا الآن فأنا أحبُّك، أغمضت عينيها وتنهدت ثم أراحت ظهرها للخلف وقالت: أكمل، فقال: أمَّا بعدُ، فلن أُحِب أحدًا بعدك..

#عنه_و_عنها

***

في جوف الليل هو يذكرها في سجدة بينه وبين ربه، وهناك تجلس هي رافعة يديها إلى الله، واسمه ملازم لكل دعوة تخرج من قلبها. وفي السماء تتعانق دعوتان، الأولى: "اللهم اجمعني بها في الجنة"، والأخرى: "اللهم اجعله زوجًا لي في الجنة"..

ذلك هو اللقاء السرمدي..

#عنه_و_عنها

***

سمعت صوت خطواته من بعيد، رائحة عطرة تفوح في المكان، بنفاد صبر انتظرت يديه الحانيتين تعانقانها، اشتاقت إلى أصابعه تعبث في شعرها كعازف يلهو بالأوتار، مدت يدها تتحسسه، فلم تجده، فتحت عينيها وأفاقت من حلمها لتجد نفسها في سريرها، أمسكت هاتفها تقلب فيه، فوجدت منه رسالة تقول: "كنت أحلم بك".. ابتسامة شوق هربت من بين شفتيها، وضعت الهاتف جانبًا واستسلمت لنوم عميق لعلها تراه مرة أخرى في حلمها..

#عنه_و_عنها

***

فتح باب السيارة ومدَّ يده لها كملكة تنزل من هودج، وضع قبلة على يدها قبل أن تنهض، نزلت من السيارة وعدّلت من رابطة عنقه وقالت: أنيقٌ أنت جدًّا اليوم، ابتسم وقال لها: هذا استثناء القاعدة، أما الأصل فأنت رائعةٌ كلَّ يوم..

#عنه_و_عنها

بذل كل طاقته ليتوقف لسانه عن البوح بكلمة واحدة لها.. واكتفى بكلمة "انا بخير".. وفي داخله بركان أحاسيس يغلي!

#عنه_و_عنها

***

حدثها عن لغة الحب والمشاعر فتذكرت غيره وبكت عليه !

#عنه_و_عنها

***

بكت أمامه فاكتملت أنوثتها في نظره.. وبكى أمامها فانتقصت رجولته في نظرها..

#عنه_و_عنها

***

بعد طول غياب.. التقيا صدفة في نفس المكان الذي جمعهما أول مرة.. كلاهما لم يتغير قيد أنملة.. ابتسامة شوق ارتسمت على ملامحهما.. اقترب منها هامسا: تزدادين جمالا وكأن السر في بعدي..

ضحكت وقالت: بل إن عينيك هي من تحمل سر الجمال في أحداقها، ولسانك يزداد عذوبة مع الوقت..

-وماذا تفعلين هنا؟

-جئت لأتنفسك..

-ومن قال لك أنني هنا اليوم؟

-هو هو من أخبرك أنني هنا اليوم!

-نتزوج؟

-خشيت ألا تنطقها ..

-كنت أنطقها كل يوم في دعائي بيني وبين ربي..

-وكنت أنا أقول آمين آمين آمين كل يوم..

#عنه_و_عنها

***

ويكتمل الحب حين تلمع عينيها من فرط ابتسامة الشوق..

#عنه_و_عنها

***

أحبها فأحبته ثم غارت فغضبت فأغضبته فاحتضنها فاشتاقت فأحبها فأحبته فازداد تعلقا ولهفة..

#عنه_و_عنها

***

و بين ذراعيه .. كانت تستجمع شتات نفسها

#عنه_و_عنها

ابتسامتك الخجولة.. وضحكتك الرنانة.. ولمعة عينيك حين اللقاء.. ورعشة شفتيك حين اللهفة.. ودمعة تنسال على وجنتيك حين الوداع.. تلك أشياء افتقدها!

#عنه_و_عنها

***

ولما علم يقينا أنها رحلت من حياته بلا عودة، دعا بإخلاص أن يجتمعا يوما في حياة لا رحيل فيها..

#عنه_و_عنها

***

كان غنيا، لا وسيما ولا قبيحا، بل مقبول الهيئة والمنظر، تظهر على ملامحه علامات الترف، كانت تراه كثيرا بحكم عملها.. وبرغم احتياجها وإحساسها بأن حياتها تتسم بالنقص.. إلا أنها كلما رأته أو حدثها أحدا عنه دعت له بالبركة في المال والولد.. بيد أنه لم يكن يسعدها سوى وجود شخص واحد في حياتها، وكلما اشتاقت تبتسم وتهرول صوب حبيبها وزوجها برغم فقره؛ تحتضنه من ظهره وتدعو لها وله بالفردوس وتقول "اللهم لا عيش إلا عيش الآخرة.."

#عنه_و_عنها

***

على بخار الماء المتجمع على زجاج النافذة من جراء زخات المطر.. وقفت ترسم بإصبعها وجها يبتسم.. سرعان ما محته واستبدلته بوجه عابس يعكس ما تشعر به.. في الماضي كانت تقف فرحة أمام المطر تنتظر ذراعيه لتتلحف بهما.. اما اليوم فقد أسندت رأسها على النافذة وبكت لأن بين ذراعيه الآن امرأة أخرى غيرها !

#عنه_و_عنها

***

يفتقدها فتضيق الدنيا عليه بما رحبت وكأن رحابة الكون تكمن فقط في عينيها !

#عنه_و_عنها

***

كورقات شجر خريفية، تتساقط أيام عمري يوما تلو الآخر.. فصارت الأيام كليال شتوية باردة غابت عنها شمس جنون الصبا.. فذبلت الأغصان اليانعة مبكرا وضاع ربيع العمر!

#عنه_و_عنها

***

استيقظ من نومه وأزاح ستائر الشرفة.. وقف يتنفس عبير الصباح.. توضأ وصلّى وأمسك كتابا يقرأه.. ثم وضع الكتَاب جانبا.. وشرد بذهنه.. لأول مرة لا يكترث بالبحث عن هاتفه ليقرأ ما كتبته على الفيسبوك ويراقب آخر مرة دخلت فيه تطبيقات

المحادثة.. ابتسم ابتسامة الانتصار.. فاليوم فقط أفاق من سكرها.. اليوم خرجت آخر قطرة شوق من قلبه.. اليوم برأ من إدمانها، ومن حول رقبته انفك قيدها.. خرج من عالمها الضيق المظلم، ذلك العالم الذي لم يسكنه غير ضمير واحد "هي".. لم يكن يسمع فيه ولا يرى غيرها.. خرج إلى عالم رحب فسيح.. يعج بكل الألوان، وفيه كل الأصوات عالم فيه ضمائر أخرى غير "هي .."

#عنه_و_عنها

***

لا يزال قلبي يسمع صوت آخر ضحكاتها.. حين كان الكون كله يرقص فرحا لها..

#عنه_و_عنها

***

تمر الأيام تباعا.. وتظل صورتها في قلبي كل النساء.. عطرها يملأ كل الأماكن.. تكاد عيني ترى آثار أقدامها محفورة في كل شارع طرقناه سويا.. فمن مثلها لا يزول أثره!

#عنه_و_عنها

***

مع كل صباح، حين أرى الشمس بازغة.. أنظر إليها لأرى في ضوئها صورتك.. وعند الغروب تأفل الشمس وتبقى صورتك وضاحة في نور القمر.. أنت الضياء والنور.. تتعاقبين في مخيلتي كتعاقب الليل والنهار.. تسبحين في فَلك أفكاري.. فأنت كلِّي، بل كلّ كلِّي..

#عنه_و_عنها

***

قال: أنا منك وأنت مني..

قالت: لا بل أنا منك وأنت بداخلي..

ابتسم وقال: اللهم اجمعني بك..

سكتت.. وأخفضت وجهها.. فشعر بتوتر غريب.. لحظات ورفعت عينيها وكلتا يديها في تضرع واستقبلت القبلة وقالت: آمين آمين آمين.. وكمان آمين..

#عنه_و_عنها

***

سأتوارى خلف الصمت.. ولن أبوح بكلمة واحدة .. سيظن الكون كله أني مت .. ففي قربك فقط سر الحياة.. سأنتظرك هناك.. في لقاء سرمدي؛ لا تعب فيه ولا نصب. هناك.. سأقول لك أحبك؛ وستفرحين بها.. هناك.. سنشرب من الكوثر.. هناك.. سنُسقى كأسا

كان مزاجها زنجبيلا.. هناك.. سنحيا للأبد، وسننعم للأبد، وسنمرح للأبد.. هناك.. خلودٌ بلا رحيل!

#عنه_و_عنها

برقة أنثى سألتني: أتحبني؟

أجبت باسما: وكيف لا أحبك وأنت مني!

كررت ثانية: أتحبني؟

قلت: بل أعشقك!

قالت: أتراني بعضٌ منك؟

قلت: أنت عمري.. بل أنت كُلي.. بل كُلّ كُلي..

#عنه_و_عنها

***

أمسك بقلمه ودون:

إلى هؤلاء الذين يوما احتلوا قلوبنا وهم لا يستحقون.. قد تتكشف الحقائق وتسقط الاقنعة.. قد يتضح لنا يوما أن دموعكم كثيرا ما كانت كاذبة.. قد تفقدون بريقكم في أعيننا.. لا تخجلوا ولا تيأسوا.. بل ابقوا في أماكنكم التي وصلتم اليها بالخداع.. أكملوا مسيرة النفاق.. سيروا في نفس الدرب.. علقوا المزيد من قلوب الأبرياء بكم.. استمروا فأنتم بارعون.. اليوم فقط لا نعزي سوى

أنفسنا أنكم يوما سكنتموها.. ولكن عذرا سنظل نحبكم فقلوبنا محتلة بكم!

#عنه_و_عنها

***

ولما تواعدنا، تعطرت لها.. فذهبت بعطري وعدت بعطرها، فلما سألني صديقي عن اسم العطر.. قلت قبل العناق ام بعده، فبعد العناق صار عطري عندها، وما تشتمه يا صديقي ليس إلا رحيقها !

#عنه_و_عنها

الفهـــــرس

للتواصل مع الكاتب



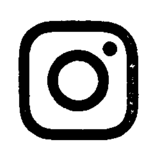
ahmed.abuelnassr@gmail.com



@abuelnassr



/ abuelnasr177



/abuelnassr



/Ahmed Abuel Nassr



/ ahmed abu alnasr

